الإسراء والمعراج

الشيخ

محمد متولي الشعراوي

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
00961 7 230841 - 07 230195
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
هـ 1437 - 2016

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نشر، أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت الكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

alassrya@terra.net.lb
E. Mail alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

مقدمة الناشر

الحمد للَّه رب العالمين. وأزكى الصلاة وأشرف التّسليم على سيّدنا محمّد النبيّ الأمين. وعلى إخوانه النبيّين. وآله الطّيّبين وأصحابه الغرّ الميامين. ومن سار على منهاجهم واقتفى آثارهم إلى يوم الدّين. وبعد.

فإن العلم بحر زخَّار، وقاموس هدَّار. كلّما ازددت منه تضلُّعاً زادك عطشاً وتطلُّعاً. فهو رحبة دياره، ذليلة أسواره، جليلة وجليّة أنواره.

فلا يتمنّع إلا على الجاهلين. ولا يتطاول إلَّا دون المعرضين وأَثمةِ المغرضين. فمن رام نيله بإخلاص عزَّ واقتبس. وعلى ذرى المجد وَهَام الفراق افترش وجلس. بيد أن من قصد منه فقد خاب وانتكس وطاش سهمه فارتكس.

وها نحن نُجِدُّ التَّسيار في سبيل هذا الطلب، عسانا أن نبلغ النُّجعة والأرب، نقدم للأمة نفائس الأدب

وذخائر المسلمين والعرب، سائلين المولى عزَّ وجلَّ أن يسدّد خطانا على النّهج الرّشيد والسّبيل السّديد.

أما بعد...

فإنّ بين يديك أيها القارئ العزيز سفراً نفيساً نزجيه إليك ليكون أثيراً، فتضحي لديه مرهوناً وأسيراً، كيف لا وهو لنابغة علّامة من علماء المسلمين وعلم من أعلام المحدثين ألَا وهو فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فتآليفه ومجلّداته هي لا شك للخاصة من أهل العلم والأدب وأما العامّة فتجد فيها منارة تنير درب المتطلعين إلى المعرفة والهِداية.

وبما أن المكتبة العصرية للطباعة والنشر أخذت على نفسها عهداً أن تكون مهنتها رسالة وضّاءة فإنها تقدم اليوم لقرّائها هذا الكتاب لعله يُشبِع لهفة الباحثين ويروي غليل الصائدين.

والحمد للّه رب العالمين

الناشر

الإسراء والمعراج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾

^

^

الإسراء والمعراج

بسم اللَّه بركةً واستعانةً، والحمد لله ثناءَ واستزادة، وصلى اللَّه على سيدنا محمد أُذُن الخير التي استمعت لآخر إرسال السماء لهدي الأرض، ولسان الصدق الذي حمل للعالم مطلوب الحق من الخلق.. وبعد

إن حدث « الإسراء والمعراج » يعتبر حدثاً ضخماً من أحداث الدعوة الإسلامية، سبقته البعثة، وجاءت بعده الهجرة، والأحداث الثلاثة التي تعرضت لها الدعوة الإسلامية هي:

١ ـ حدث بعثة النبي ﷺ.

٢ ـ حدث الإسراء.

٣ ـ حدث الهجرة.

ونحن نعرف أن رسول اللَّه ﷺ بُعث على فترة من الرسل، وبُعث بدين خاتم، وبدين جامع، يشمل الزمان كله والمكان كله ؛ لأن الرسالات التي سبقته

كانت محدودة الزمان ومحدودة المكان، ولكن الرسالة الإسلامية جاءت عالمية للناس في كل زمان، وفي كل مكان.

واختار اللَّه سبحانه وتعالى لانطلاق هذا الدين أول بيت وضع للناس ؛ ليكون هو المكان الذي تنبعث منه الدعوة الإسلامية، وكما نعرف أن مكة قد أخذت على كل القرى في الجزيرة العربية مكان الصدارة ومكان السيادة، وبالتالي فقد أخذ سكانها من قريش مكان السيادة، والعزة، والجاه. وكانت هذه السيادة، والعزة، والجاه هي التي تجعل لقريش المهابة في الجزيرة العربية كلها ؛ لذلك أَمِنَت رحلاتهم في الشتاء وفي الصيف أن تتعرض لأية غارة من أية قبيلة من القبائل، ولأن كل قبيلة من القبائل كانت عرضة أن تفد على مكة المكرمة في موسم الحج، فهي إذاً لا بد أن تسالم القبيلة التي تسكن هذا البلد، وأن ترعى تجارتها وألا تتعرض لها بسوء.

هذه السيادة التي أخذتها قريش قد جعلت كلمتها نافذة، وسلطانها قاهراً على الجزيرة كلها، وشاء اللَّه سبحانه وتعالى أن تكون بداية الدعوة الإسلامية منطلقة

من مكة المكرمة ؛ حتى تكون الدعوة في أذن هؤلاء السادة، الذين لهم الجاه، ولهم العظمة، ولهم السيطرة، ولا يمكن لأحد أن يقف أمام جاههم ونفوذهم وسيطرتهم، فحين تجيء الدعوة الإسلامية من هذه المنطقة، وحين تواجه الدعوة الإسلامية بهؤلاء القوم الذين لهم هذه المهابة المطلقة، يكون اللَّه سبحانه وتعالى قد اختار قمة الميادين لهذه الدعوة.

وأما الرسول ﷺ حينما بُعث مرَّ بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: أن يعلم هو بأنه رسول.

المرحلة الثانية: أن ينذر من حوله من عشيرته الأقربين.

المرحلة الثالثة: أن ينذر المحيط كله.

وقد هيَّأ اللَّه سبحانه وتعالى له النجاح في هذه المراحل، إلا أن اللَّه سبحانه وتعالى هو خالق الأسباب، وخالق المسببات، فهو يجعل للأشياء أسباباً في عرف البشر، تكون مقدمات لما يريدون من النتائج، وهذه الأسباب اللَّه سبحانه وتعالى في غني عنها، ومن الممكن أن ينصر دينه بدون أن يجعل له من

أسباب البشر، ولا من ماديات الحياة مقدمات، ولكن الرسول ﷺ جاء أسوة لأمته، والأمة المؤمنة كلها مطالبة بامتداد رسالته ﷺ؛ حتى يجتهد كل مؤمن انقطع عنه وحي السماء في أن يعدّ أسباب الأرض وأسباب المادة؛ ليصل إلى منطلقه فيما يريده اللَّه سبحانه وتعالى من تبليغ الدعوة والثبات عليها.

فالحق سبحانه وتعالى حينما أمر محمداً ﷺ أن يجهر بدعوته عاداه القوم عداء بلا هوادة، إلا أن هذا العداء لم يمنع تسرُّب هدى الإيمان إلى نفوس كثير من الناس من عشيرته ﷺ الأقربين، ومن قومه الذين يعلمون صدقه فيما جاء به، وأنه لم يكذب عليهم حتى في أمورٍ بينهم.. فكيف يكذب على اللَّه سبحانه وتعالى؟

وكان النبي محمد ﷺ في حاجة مادية إلى أن يُحمي حمايتين:

الحماية الأولى: من الكفار في الخارج.

الحماية الثانية: في ساعة راحته وسكونه وهدوئه في البيت.

كان أبو طالب يحميه في الخارج من أذي الكفار وأذي المشركين، وكان كفر أبي طالب سبباً من الأسباب التي جعلت الكفار يجاملونه بعض المجاملة.

وكانت السيدة خديجة رضي اللَّه عنها في البيت هي السكن الذي يلجأ إليه الرسول ﷺ، فتمسح بيدي الحنان، وبيدي العطف، وبيدي الرعاية، وبيدي العناية على متاعبه من حركة الحياة التي يحياها عليه الصلاة والسلام.

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد هيأ لحمايته ﷺ ولنصرته ولمؤازرته مصدراً إيمانياً في البيت كان من خديجة، ومصدراً كفرياً في الخارج كان من عمه أبي طالب.

فحين يكون هذان المصدران بجوار رسول اللَّه ﷺ يكون في الخارج مكفول الحماية ؛ بسبب عمه أبي طالب، وفي الداخل مكفول الأمن والاطمئنان والاستقرار والهدوء بواسطة زوجته. ولكن اللَّه سبحانه وتعالى شاء أن تتوفى زوجته خديجة بنت خويلد في العام الذي توفي فيه عمه أبو طالب.

وبذلك فقد رسول اللَّه ﷺ السكن الذي كان يأوي

إلى حنانه وعطفه، كما فقد الحماية الخارجية، ومع أن رسول اللَّه ﷺ كان يعلم تماماً أن اللَّه سبحانه وتعالى لا يُسلمه، إلا أنه مع ذلك أخذ يعمل فكره، ويُعمل بصيرته، ويخطط لينطلق بالدعوة بالأسباب البشرية التي يقدر عليها.

وما كان منه في هذا الجو الخانق في مكة إلا أن يلتمس منطلقاً للدعوة، لعله يجد نصيراً خارجياً، فقام برحلته إلى الطائف.

ولكنه وجد خلاف ما اعتقد، وحدث أن آذوه بالقول، وآذوه بالفعل، واضطهدوه وسلطوا عليه سفهاءَهم حتى أدموا عقبيه، فوقف موقف الضارع إلى اللَّه سبحانه وتعالى بعد أن فقد أسباب البشر.

جفاء أهل الأرض . .
وبداية الرحلة المباركة

هنا نقف وقفة . . فالإنسان الذي يمدّه اللَّه سبحانه وتعالى بالأسباب عليه أن يستعمل هذه الأسباب، وأن يجتهد وسعه في أن يستخدمها في الوصول إلى أغراضه، وحين يلجأ إلى اللَّه سبحانه وتعالى ومعه الأسباب، يردّ اللَّه سبحانه وتعالى رجاءه ؛ لأنه لا تزال معه الأسباب، ولكن إذا ما أصبح مضطراً، وقد أعيته الأسباب فوقف موقفه الضارع إلى اللَّه سبحانه وتعالى، وقال :

« اللَّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوٍّ ملكته أمري . إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي .

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو تحل عليّ سخطك، لك العُتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه ».

دعاء فيه كل مقومات الإيمان واليقين ؛ لأن رسول اللَّه ﷺ يعلم أن اللَّه لن يخذله. دعاؤه معناه أنه قد استنفد كل الأسباب، وأنه لم يجد إلا عداءً وبُعداً، فلا بد إذن من عناية اللَّه وحمايته سبحانه وتعالى.

سمع اللَّه سبحانه وتعالى ضراعة رسوله ﷺ، وكانت مشيئته تعالى أن يبين له جفاء أهل الأرض، ولكن لا يعني ذلك أنه سبحانه قد تركه، فاللَّه سبحانه وتعالى سيعوِّضه عن جفاء الناس في الأرض، بحفاوة الملأ الأعلى، وسيريه من آياته الكبرى ما يُثبِّت به فؤاده، ويعينه على أداء رسالته.

وأن اللَّه سبحانه وتعالى الذي أراه هذه الآيات قادر على أن ينصره، ولن يتركه، لكن اللَّه سبحانه وتعالى تركه للأسباب أولاً ؛ ليجتهد فيها حتى يكون أسوة لأمته في ألا تدع الأسباب.

إذن.. فقد كانت ليلة عظيمة الشأن، وكان حدث الإسراء وحدث المعراج بعد جفوة أهل الأرض لرسول اللَّه ﷺ، وبعد فَقْدِ النصير والحامي. فاللَّه سبحانه وتعالى شاء أن يجعل لرسوله ﷺ هذه الرحلة العلوية؛ حتى يثبت له تكريمه، وحتى يثبت له أن في عناية اللَّه سبحانه وتعالى، عوضاً عن كل مفقود، وأن الملكوت سيحتفي به حفاوة تُذهب عنه عناء كل هذه المتاعب، وسيعطيه دفعة قوية؛ لتكون أداته في منطلقه الجديد بإذن ربه سبحانه وتعالى.

الإسراء في القرآن

يقول ربنا جل في علاه: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] فالإسراء حدث لرسول اللَّه ﷺ؛ تسلية له عما لقيه من الإيذاء من القوم الذين صدوا عنه، وكلفوا السفهاء أن يؤذوه بالقول وبالفعل، وحين ضاقت عليه الأرض بما رحبت، توجّه إلى الطائف، فلقي ما لقي من العنت والإيذاء، ثم رجع إلى مكة فلم يجد من يجيره إلا المُطعم بن عدي. وهو رجل كافر، ولكن رقّ قلبه للرسول ﷺ.

كانت قسوة من أهل الأرض ما أبشعها، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلي رسوله ﷺ، بأنه إن كان هذا جفاء أهل الأرض، فانظر حفاوة أهل

السماء، فجاء حدث الإسراء والمعراج.

إن حدث الإسراء جاء أولاً، ثم جاءه بعده بنص الحديث الجامع لهما حدث المعراج، والإسراء آية أرضية من المسجد الحرام، وهو معلوم للقوم، إلى المسجد الأقصى وهو معلوم أيضا للقوم. والمسافة بينهما أربعون يوماً بسير الإبل، فكون الرسول ﷺ، يحدّث أنه أتاه في ليلة، فتلك معجزة في قطع المسافات. فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقربها لأذهان الخلق، فقال لا تقيسوا فعل اللَّه بفعلكم؛ لأن فعلكم يقتضي علاجاً ويقتضي دوابَّ، ويقتضي مسافة، وقطع المسافة حسب الجهد والقوة. ولكن نزّهوا اللَّه في فعله أن يحتاج إلى زمن. فصدّرها بقوله: ﴿سُبْحَانَ﴾ أي تنزيها لذاته، وتنزيهاً لصفاته، وتنزيها لفعله.

والنص القرآني هو عمدتنا في توثيق هذا الحدث، وحين يجيء النص القرآني بحدث فليس لنا إلا أن نؤمن به؛ لأنه ورد من اللَّه سبحانه وتعالى، وليس لعقولنا القاصرة أن تبحث البحث الجاري في قوانين

الأرض، وقوانين البشر ؛ لنحاول أن نفهم قوانين اللَّه سبحانه وتعالى، ولكن ما دام اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي قال ؛ فالأمر الذي يجب على المؤمن هو أن يُسلّم به، وبعد ذلك على عقله أن يبحث في قياسات هذا التسليم، أو في مبررات هذا التسليم، فيجد المبرر الأول للتسليم أنه آمن أولاً باللَّه سبحانه وتعالى.

إن الإنسان أول ما يدخل في الدين يؤمن باللَّه سبحانه وتعالى، وبعد ذلك يتلقى عن اللَّه سبحانه وتعالى.

إذن.. فتلقيه عن اللَّه سبحانه وتعالى، مشروط بأنه آمن به سبحانه وتعالى، فما عليه بعد ذلك إلا أن يُوثِّق الكلام.. أصدر من اللَّه، أم لم يصدر ؟ فعِلّة إيمان المؤمن بأي حُكم، أو بأي حدث صادر عن اللَّه سبحانه وتعالى هو توثيق صدوره من اللَّه سبحانه وتعالى، وبعد أن يوثّق صدوره عن اللَّه سبحانه وتعالى ما عليه إلا أن يؤمن به وبأنه حدث، وبعد ذلك لعقله أن يجول بطاقاته ؛ حتى يمكن أن يؤنس

عقله بأن ذلك الحدث يكون وليس مُحالاً.

إن هذا الحدث استهلَّه اللَّه سبحانه وتعالى بكلمة: ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾، ومعنى كلمة: ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ أول ما تقع على الذهن تعطي الإنسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبهة مقارنة، والتي تأتي بين قانون المادة الأرضية الإنسانية، وبين قانون اللَّه سبحانه وتعالى. وإن معنى « سبحان اللَّه »: أن اللَّه سبحانه وتعالى منزّه في ذاته، وفي صفاته وفي أفعاله، فإذا صدر فعل، وقال اللَّه سبحانه وتعالى أنه صدر منه، فيجب أن أنزّهه أنا عن قوانين البشرية، وألا أُخْضِع فعل اللَّه سبحانه وتعالى إلى قانون فعلي.

ولهذا فقد استهلَّ اللَّه سبحانه وتعالى الحدث بقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ حتى يكون أول ما يقرع الإنسان لذلك الحدث العجيب الغريب، الذي قد تقف فيه العقول.

و « سبحان اللَّه » أي تنزيهه، فإذا قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾ معنى ذلك: تنزيهه لفعله عن

أفعال البشر، وليتبين أن قانون اللَّه سبحانه وتعالى ليس كقانون البشر في الفعل.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ﴾ فاللَّه سبحانه وتعالى هو الذي أسرى ومحمد ﷺ هو الذي أُسري به. ولقد اختار اللَّه سبحانه وتعالى لفظاً يعطي حيثية تلك التجربة، واللفظ هو: ﴿ بِعَبۡدِهِۦ ﴾.

وبعد ذلك بداية الإسراء: ﴿ مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾، ونهايته: ﴿ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾، ثم قال العلة: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ ﴾، ثم بعد ذلك قال العلة الدافعة لكل هذا.. لماذا نريه من آياتنا؟ ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾.

سميع لماذا؟ وبصير بماذا؟.

فقد كان من الممكن أن يقول على نسق أساليب البشر بعد أن يريه الآيات:

- إن اللَّه على كل شيء قدير.
- إن اللَّه وهَّاب.

أما أن يأتي بقوله: بأنه ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾؛ فهذا ليدلك على العلة الحقيقية، والتي استوجبت أن

يسري اللَّه سبحانه وتعالى برسوله محمد ﷺ، فقد سمع اللَّه سبحانه وتعالى دعاء رسوله بعد الإيذاء الذي أوذي به، وقد رأى سبحانه ما تعرّض له رسوله من الجفاء والاستهزاء، ومن السخرية ومن الإهانة، كل ذلك بمرأى ومسمع من اللَّه سبحانه وتعالى، فحين رأى اللَّه سبحانه وتعالى ذلك وسمع، أراد بمشيئته أن يريه الآيات فأسرى به.

وجه المعجزة في الإسراء والمعراج

إذا جئنا لنأخذ عنصر الفعل من أي فاعل، فنجد أن عنصر الفعل في أي فاعل ملحوظ في ذات الفعل، فإذا قيل مثلاً:

« خَطبَ فلان » فسنأخذ الخطبة بمعيار فاعلية الخطيب الذي نعرفه، « وخِطب فلان » فسنأخذ الخطبة بمعيار هذا الخطيب.

وإذا قيل: « حمَلَ فلان أثقالاً » نأخذ العملية الفعلية « حمل أثقال » بقوة الذي حمل، فإذا حمل إنسان عادي، فيكون له قوة محدودة، وإذا حمل بطل وله رقم قياسي، فيكون له أيضاً قوة.

إذن.. فكل فعل من الأفعال يجب أن يقارن بفاعله هو، فلا نأخذ الفعل من فاعل، ونعطي قانون غير الفاعل.. كيف ؟

إن اللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾ أي: إن الذي أسرى هو اللَّه سبحانه وتعالى، إذن.. فالفعل وقع من اللَّه سبحانه وتعالى، فلا يصح أن نؤاخذ محمداً ﷺ بفعلٍ فعله اللَّه سبحانه وتعالى به.

وما دام اللَّه سبحانه وتعالى قد فعل، فلماذا نتعجب من محمد أن يقوله ؟!

محمد لم يقل: « أنا سريت » ؛ حتى نردّ محمداً ﷺ إلى قانون، ونقول له كما قال الكفار: « نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، وتدّعي أنك أتيتها في ليلة ؟ » من الذي قال: إنه أتاها ليلة بقدرته وحده ؟ لم يأتها، وإنما أُوتي به، وأنتم تقولون: « نضرب إليها أكباد الإبل » أنتم تضربون أكباد الإبل، فإذا كنتم صادقين في المقارنة والمفاضلة العقلية، والتناقض العقلي عندكم، وتريدون أن تستشكلوا عليه، كان يجب أن تقارنوا فعلاً منكم بفعل منه، أما أن تقارنوا فعلاً منكم، بشيء لم يدّع هو أنه فعله، فهذه استحالة في المناقشة.

إذن.. كان من الممكن أن يُصعِّدوا المسألة في القياس، يُصعِّدونها إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ولا

يقولون له: « كيف تدَّعي أنك أتيتها في ليلة، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل في خلال شهر » لأن محمداً ﷺ قال: « أنا لم أسر، وإنما أُسري بي ».

ولكن نحن نعرف أن اللَّه سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ؛ وذلك لأنه سيأتي أناس من المتحذلقين المعاصرين، ويقولون: « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم: باللَّه لو قال محمد للعرب: أنا سريت بروحي أكانوا يكذبونه ؟! تماماً مثلما يقول لنا قائل: « أنا كنت في نيويورك الليلة ورأيتها في المنام »، فهل سيكذبه أحد.

إذن.. لقد كذبه العرب ؛ لأنهم فهموا أنه سرى بمعنى كامل الإسراء بالجسد والروح معاً. بدليل أنهم قارنوا فعلاً بفعل، وحدثاً بحدث، ونقلة بنقلة، وقالوا قولهم السابق.

إذن.. إن محمداً ﷺ محمول على نطاق قوة أخرى جبّارة لا حساب لها. كيف ؟

لو افترضنا أني صعدت بابني الرضيع قمة جبال « هيمالايا »، أيقول مجنون لي: كيف يصعد ابنك

الرضيع قمة جبال « هيمالايا ؟ » لا يقول لي أحد هذا، والذي يقول هذا لا بد وأن يكون عقله مختلاً، إنما يقول لي: كيف صعدت أنت ؟ والمسألة في الإسراء والمعراج لم يردوها إلى اللَّه سبحانه وتعالى، وإنما ردوها إلى محمد ﷺ.

إذن.. فالفعل من اللَّه سبحانه وتعالى، وحين يوجَد الفعل من اللَّه سبحانه وتعالى يجب أن يُلغى قانون البشر.. هنا قانون البشر غير موجود.. لماذا ؟ لأن كل فعل يختلف باختلاف فاعله، ويختلف بقوة ذلك الفاعل.. وهكذا.

فمثلاً الذي يسري من مكان ما إلى مكان آخر في سيارة عادية، غير الذي يسري في طائرة، أو في صاروخ، ومن يدري.. قد يكون هناك آلة أسرع من الصاروخ !!

إذن.. لا بد أن ننسب الزمن إلى قوة العمل، فما دامت المسألة من اللَّه سبحانه وتعالى، وهو الذي أسرى، ومحمد ﷺ مصاحب، ومحمول قانون ضعفه البشري على قانون قوة ربه، فلا بد لنا أن نقيس

المسافة وزمانها بنسبة القوة التي فعلت.

وكما يقولون: « إن المسافة تتناسب مع القوة تناسباً عكسياً »، فكلما ازدادت القوة قصرت المسافة، والقوة التي فعلت هي قوة اللَّه سبحانه وتعالى، فنجد عندئذ أن النتيجة لا زمن.

قد يأتي شخص ما ويقول لك: ما دام ليس هناك زمن.. فلماذا أخذ ليلة ؟

نقول له:

هناك فرق بين حدث الإسراء في ذاته باعتباره نقلة، وبين مرائي تعرَّض لها الرسول ﷺ. فالرسول عليه الصلاة والسلام حينما تعرض لمرائي رآها هو ببشريته وبقانونه، فالمرائي التي تعرض لها هي التي احتاجت للزمن، أما النقلة في ذاتها فلم تحتج إلى زمن ؛ لأنها محمولة على قانون: خالق الزمن.

إذن.. فأولئك الذين ناقشوا رسول اللَّه ﷺ وجادلوه في حادثي الإسراء والمعراج، هم جماعة قد برهنوا لنا على أنهم قارنوا مقارنة غير موضوعية.

وقد يسأل سائل: كيف يذهب، وكيف يعود ؟ وربما

كان الإسراء بالروح فقط، وربما كان بالجسد والروح معاً ؟

هنا نناقشهم، فنقول:

إن المسألة ليست حدثاً من محمد ﷺ. إذن.. فاستبعِدوا قوانين بشريتكم، استبعِدوا قانون أرضيتكم، وصعِّدوا هذه المسألة بالنسبة إلى اللَّه عز وجل، فنقول:

١ ـ هل يقدر اللَّه سبحانه وتعالى على هذه المسألة، أم لا يقدر ؟

٢ ـ هل قوته سبحانه وتعالى تحتاج إلى زمن، أم لا تحتاج إلى زمن لهذه المسألة ؟

ولكي تعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قد هيّأ لدين الإسلام جنوداً حتى من الكافرين ؛ وذلك ليعاونوا محمداً ﷺ على نصر دعوته، كيف ؟

نقول: لو لم يقف كفار قريش من رسول اللَّه ﷺ موقفهم هذا ليقولوا له: أتدّعي أنك أتيتها في ليلة، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ ربما قال قائل بعد ذلك: كان مناماً، والمنام لا يُماري فيه، والحكم

عليه لا يماري فيه أيضاً، فإذا رأيت أني قد ذهبت إلى لندن هذه الليلة، فلا يمكن أن يناقشني أحد ؛ لأن المسألة رؤية لا أكثر.

إذن.. فموقفهم هذا الذي وقفوه قديماً أمام رسول اللَّه ﷺ حينما قالوا له: أتدّعي أنك أتيتها في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ تأكيدٌ على أنهم أدركوا أنها لم تكن مناماً، ولا روحاً، بل كانت يقظة بروحه وبجسده، وإلا لما صدر هذا الاعتراض.

وبذلك يتبين لنا أن الكافرين بتعنتهم أمام رسول اللَّه ﷺ قد أسدوا إلينا خدمة كبيرة تبينت لنا بعد ذلك.

وهنا نقول: لو كانت رؤيا منامية لما ناقش فيها أحد ؛ لأن أي واحد يقصّ عليك رؤية يدل ذلك على أن قانون المرائي فوق قانون المادة واليقظة، وبما أنهم قد ناقشوا هذه المسألة، ووقفوا هذه الوقفة، فهم إذن قد أدركوا أنها يقظة، وبالجسم والروح معاً.

وإن الذي يقول هذا الكلام يحاول أن يسنده بشيء، فيبحث حتى يجد نصاً قرآنياً، وهو قوله سبحانه

وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وعندهم أن كلمة ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ لا تأتي مصدراً إلا لرؤيا المنام؛ لأن الرؤية البصرية يقال فيها: رأيت رؤية، إنما إذا رأيت مناماً تقول: رأيت رؤيا، فنص القرآن: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ أي: إنها منامية.

ونحن نقول له: إذا كانت رؤيا منامية فكيف تكون فتنة للناس؟! ومعنى فتنة للناس: أن بعضهم يصدق وبعضهم يكذب، ولو كانت رؤيا منامية، فلا يمكن أن يناقشها أحد، لا تصديقاً ولا تكذيباً.

ومن ثم لنتقدم إلى اللغة قبل أن نعود إلى الكلام، نقول: لا تأخذ بالشائع على ألسنة الناس، إنما خذ بالتحقيق اللغوي الموجود في القوانين، عد إلى اللسان الجاهلي قبل أن ينزل القرآن ستجد أن كلمة الرؤيا وردت أيضاً للبصرية، فالراعي النميرى أعرابي شاعر يقول في قصيدة له:

فكبر للرؤيا وهش فؤاده

وبَشر نفساً كان قبل يلومها

والمتنبي وإن كان ممن لا يستشهد بشعره ؛ إلا أنه استئناس فقط ؛ حيث يقول :

مضى الليل والفضْل الذي لك لا يمضي
ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

إذن . . فقد استعملت كلمة : « الرؤية » بمعنى « البصرية » و« الرؤيا » بمعنى « المنامية »، ولكن عادة يستعملون كلمة : ﴿ ٱلرُّءۡيَا ﴾ في البصرية، في الأشياء الغريبة العجيبة، كأنها من الأشياء التي لا تحصل إلا مناماً، كما تقول أنت : أنا رأيت ذلك في الحلم، فإذا رأيت رؤية فهذه من الأمور المعتادة، إنما إذا رأيت رؤيا، وقد رأيت ببصرك، فمعنى ذلك أنها أمر عجيب، مما لا يمكن أن يدرك إلا في الأحلام، فهي كأنها رؤية، وإلا لو كانت منامية لما كانت فتنة للناس، ولما اختلف الناس فيها . . فهل وجدتم قوماً قد اختلفوا مع أحد رأى رؤيا منامية، في أنه رأى الرؤيا، وبأي شكل رآها، وعلى أية صورة، وبأية سرعة، وفي أي منظر ؟! أبداً، لم يوجد شخص ناقش هذه المسألة .

إذن . . ما دامت رؤيا الرسول ﷺ جُعلت فتنة، فهذا

دليل على أنها لم تكن رؤيا منامية.

ثم نحن نريد أن نناقش الذين يقولون هذا الكلام مناقشة لُغوية، كما يناقشونها لغوياً، فنقول لهم:

كيف نستعمل كلمة « جعل » في اللغة ؟

نحن نرى في اللغة أن كلمة « جعل » هذه لو استعملت في شيء كان معدوماً فيوجد ؛ فتكون بمعنى: « خلق ».

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي: وخلق منها زوجها، كان معدوماً فوجد، لكن إذا استعملت « جعل » في شيء موجود تحول إلى شيء آخر فيكون عندنا أمران اثنان:

١ ـ مجعول.

٢ ـ مجعول منه.

جعلت الطين إبريقاً.. جعلت الخشب مكتباً.

إذن.. كان هناك خشب قبل أن يكون هناك مكتب، ثم حوّلته وجعلته مكتباً.

إذن.. فهناك فرق بين « جعل » التي تتعدي إلى مفعول واحد، وهذه إيجاد من عدم، وبين « جعل »

التي تتعدّى إلى مفعولين، المجعول منه كان موجوداً ثم صار إلى شيء آخر.

واقرأ قول اللَّه تعالى لخليله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فأنت إذن موجود، أما « الإمامية » فهي شيء آخر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ ماذا جعلناها ؟ ﴿فِتْنَةً﴾ !! وكيف تصير الرؤيا فتنة ؟ لا بد أن تنقلب هذه الرؤيا حقيقة. لا مانع أن يكون رسول اللَّه ﷺ قد رأى الإسراء « رؤيا »، ثم رآه « يقظة ».

واقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧].

رآه في الرؤيا ثم صار حقيقة وواقعاً. فما الذي يمنع أن يكون رسول اللَّه ﷺ آنس اللَّه سبحانه وتعالى روحه، فرأى مناماً هذه المشاهد، وبعد ذلك رآها حقيقة، كما رأى أنه دخل المسجد الحرام رؤية، وأصحابه محلّقين ومقصّرين، وبعد ذلك رآها حقيقة ؟ ويكون بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا﴾ التي رآها رسول اللَّه ﷺ في المنام إلا فتنة، أي: واقعاً يفتن

الناس فيه، فبعد أن كانت كذا، صارت إلى كذا.

إذن.. فلا مانع أن يكون الرسول ﷺ قد تعرض لحدث الإسراء أولاً مناماً، ثم تعرض له روحاً، ثم تعرض له يقظة، وها هي السيدة عائشة تحدثنا فتقول: « إنه ما رأى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ».

بعد ذلك ننتقل إلى نقطة أخرى، فبعد أن تكلمنا عن أن الإمكان العقلي موجود بإسناد الفعل إلى الحق سبحانه وتعالى، وإبعاد محمد ﷺ عن مدار النقاش، فيكون محمد ﷺ « مصاحباً » لا علاقة له بالفعل.

بعد ذلك نأتي بالحيثية: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾، لم يقل: برسوله أو بمحمد، بل أتى بصفة العبودية للَّه سبحانه وتعالى، التي هي باب العطاء من اللَّه سبحانه وتعالى؛ لأن كل الرسالات جاءت لكي تصحح العبودية للَّه تعالى، وكل رسول من الرسل لا بد وأن يكون قدوة، ولا بد أن يكون قدوة في العبودية.

العبودية لمن؟ وما العبودية بحد ذاتها إلا كلمة مُرّة، كلمة صعبة، كلمة يمقتها الناس حقاً، ولكن.. لماذا العبودية ممقوتة؟ إن العبودية ممقوتة حينما تكون

من خلق لخلق، أن يكون الخلق عبداً لخلق.. لماذا ؟ لأن عبودية الخلق تعطي خير العبد لسيده، يمتصّ خيره، يأمره بأعمال قد لا يطيقها إطلاقاً، أما عبودية الخلق للحق سبحانه وتعالى، فهي تعطي صورة عكسية تماماً، تعطي خير السيد للعبد، وخيرات لا حدود لها.

إذن.. فإن العبودية هنا شرف، فكلما ازدادت العبودية، كلما ازدادت منن العطاء من اللَّه سبحانه وتعالى، تُخلص في العبودية، فيفيض عليك أكثر عطائه سبحانه.

إذن.. فإن الحق سبحانه وتعالى حين قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ ﴾، أعطانا شبه الحيثية، وكلمة ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾ أيضاً حتى يمكن الرد على الذين قالوا: إنه أُسري به بالروح، لأن كلمة « العبد » لا تطلق إلا على الروح والجسد، هل يقال على الروح وحدها « عبد » ؟، لا يمكن ذلك، ولا حتى على الجسد وحده، وإنما يطلق على النفس حينما يوجد فيها المادة والروح.

وقوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ ابتدائية هنا، في المسجد الحرام، وبالطبع فإن البيت الحرام

هو أول بيت وضع للناس، ونحن نعرف قصته، وقصة إبراهيم عليه السلام، وما دام أول بيت وضع للناس، وهو منطلق الدعوة، ومحل الإقامة لرسول اللَّه ﷺ.

إذن.. الإسراء منه إلى أين ؟ ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ أيضاً مشهد « مقدّس » من مشاهد اللَّه في الأرض.

وقد يسأل سائل: هل كان المسجد الأقصى « بالمناسبة » مسجداً، مع أنه لم يكن قد صلّى فيه الرسول ﷺ، ولم يكن مسجداً بالمعنى المفهوم ؟

أقول: ما معنى كلمة « مسجد » ؟ كلمة مسجد اسم مكان « لمكان السجود»، وإن كلمة السجود جاءت في كل الرسالات، وهناك فرق بين الشيء حينما يستعمل وصفاً اشتقاقياً، وبين أن يستعمل عَلَماً. هي بقيت علماً عندنا على المكان الخاص به، إنما « المسجد » هو كل مكان يسجد فيه للَّه سبحانه وتعالى، وهم اتخذوه أيضاً مسجداً للَّه سبحانه وتعالى، والدليل أن اللَّه سبحانه وتعالى قال لمريم: ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [آل عمران] فكأن « السجود » موجود

في كل الرسالات، وأيضاً يقص سبحانه وتعالى علينا قصة أهل الكهف فيقول: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]، فكأن كلمة « المسجد » لم تأت مع الإسلام، وإنما شاع استعمالها في هذه الأماكن مع الإسلام، وإلا فكل مكان يُسجد فيه للَّه سبحانه وتعالى يكون « مسجداً ».

ونأتي لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] قلنا: إن المسجد الحرام هذا هو أول بيت وضع للناس، ولكن يجب أن ندرك ذلك، فإن بعض الناس تساءلوا: هل الذي بناه هو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟ ونقول لهم: لا، هو موضوع للناس، إذن، ما دام هو موضوع للناس، فيكون واضعه غير الناس، وما دام وجد ناس وآدم عليه السلام من الناس، فلا بد أن يكون هناك بيت للَّه سبحانه وتعالى، ولا بد أن يكون هذا موضوعاً قبل وجود آدم عليه السلام.

واقرأ قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] وآدم من الناس، وبنوه من الناس،

فيكون البيت قد وضع لهم، وإنما إبراهيم فقط رفع القواعد من البيت.

وإن إسماعيل عليه السلام قد ساعد أباه إبراهيم عليه السلام في رفع قواعد البيت، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧].

إذن.. لقد كان إسماعيل في حال يعين فيها أباه على البناء، لكن الحق سبحانه وتعالى يقص علينا في سورة أخرى قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فساعة الإسكان كانت هاجر وابنها الرضيع، ولم تكن قواعد البيت الحرام رفعت بعد.

إذن.. ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ معلومة قبل أن يرفع إبراهيم عليه السلام القواعد من البيت، فيكون البيت ليس من وَضْعِ إبراهيم عليه السلام، ولا من تأسيس إبراهيم عليه السلام، فالبيت وُضِعَ من قبل إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام هو الذي رفع القواعد

فقط، ولأن اللَّه قد قال له: اذهب عند البيت المحرم. قبل أن يكون البيت المحرم والذي رفع قواعده لما كبر إسماعيل.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾؛ يأتي شخص ليسأل: لماذا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؟ نقول: لأن الكعبة كانت قد انطمرت كبيت من بيوت اللَّه سبحانه وتعالى، ولم يعد لها هذا المظهر، وسمّيت بعد ذلك « بيت العرب » وشحنت بالأصنام. هذا شيء.

وأما بيت المقدس فله قدسيَّة مع موسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل، ورسول اللَّه ﷺ لم يُبعث لقومه فقط، أي: لم يخص العرب فقط، كما يريدون هم أن يقولوا، لا.. إن محمداً ﷺ قد جاء برسالة عالمية، فإسراؤه من مكة إلى بيت المقدس كأنه أدخل بيت المقدس في المقدسات الإسلامية، وهذه العملية توضح بأن الإسلام مهيمن على كل الدنيا، وكل مقدسات الدنيا، وكذلك أيضاً اتجهنا إليه أولاً، فلا يأتي أحد ويقول: أنتم لكم دينكم، ونحن لنا ديننا. لا، من الصحيح أن ديننا قد جاء في مكة، ولكنه مهيمن على

سائر الأرض، وهذه المقدسات داخلة أيضاً في مقدساتنا، وأصبح بيت المقدس من مقدساتنا ؛ لأنه صار منتهى مسرى النبي ﷺ، وبداية معراجه ﷺ.

كما أن حادثة الإسراء، حادثة « أرضية » ومعنى أرضية:

أولاً: أنه كان هناك أناس في بيت المقدس.

ثانياً: وأناس ذهبوا إلى بيت المقدس.

ثالثاً: وأناس رأوا بيت المقدس.

رابعاً: وأناس يعرفون الطريق إلى بيت المقدس.

وهكذا بقيت المسألة هي الإعجاز في اختصار الزمن، ولكن من الممكن أن يقام الدليل المادي للناس على صدقه في هذا ؛ حين قالوا له: صف المسجد فوصف المسجد!

إن طلبهم لوصف المسجد من رسول اللَّه ﷺ هو شهادة منهم بأنهم يعلمون جيداً بأنه ﷺ لم يذهب إلى هناك في رحلاته، ولو كانت عندهم شبهة في أنه قد ذهب لما سألوه أي سؤال ؛ فمعنى طلبهم وصف المسجد أنهم متأكدون من عدم ذهابه إليه قبل ذلك،

فوصف لهم المسجد، والذين يسمعونه قوم رأوا المسجد، فقد وجدوا أن الوصف مطابق لما قال.

بعد ذلك يأتي أحدهم ليقول: ربما كان هناك إنسان « حاذق » قد وصف المسجد لرسول اللَّه ﷺ، ورسول اللَّه نقل وصف المسجد عنه !

ولكني أقول: لا ؛ وذلك لأن الأمر المادي ارتبط بتوقيت زمني، يستحيل فيه أن يكون ذلك، كيف ؟ إن الطريق الذي يعود منه رسول اللَّه ﷺ إلى مكة حدثت فيه أحداث، والأحداث رآها رسول اللَّه، وحدّث بها القوم، رأى جماعة ومعهم جمل وَصْفُه كذا، وتحدّث لهم عن كذا، وكذا، وقال لهم: حين يقبلون عليكم اليوم اسألوهم عما حدث.

إذن.. لقد وصف أشياء رآها في طريق العودة، وبعد أيام يتربّص القوم بالقوافل التي ستحضر، فيجدون كما قال رسول اللَّه ﷺ في الطريق.

إذن.. من الممكن أن يقام الدليل المادي الذي يقنع العقل، على أن رسول اللَّه ﷺ قد ذهب إلى بيت المقدس.

وبذلك فقد أقام ﷺ الدليل في المكان فوصفه. وفي الطريق فتكلم عن أمارات فيه، لم توجد إلا في الوقت الذي مرَّ فيه، وما هذا إلا دليل على أنه صادق فيما قال، وما دام صادقاً فيما قال، فما هي إذن مسألة الزمن هذه ؟

إن اللَّه سبحانه وتعالى قد خرق له قانون الزمن، فإذا اقتنعنا بأن اللَّه سبحانه وتعالى قد خرق له القانون الزمني بالاستدلال عليه بالأدلة المادية التي نعرفها، ثم حدَّث بعد ذلك قائلاً: إنه خرق لي القانون، فصعدت إلى السماء، فيكون إيماناً بما كان تحت أيدينا من الحجج التي نعرفها، يجعلها وسيلة إلى أن نصدق ونقول: إن الذي خرق له قانون المسافة، فيما نعلم، قادر على أن يخرق له قانون العلو فيما لا نعلم.

وحينئذ يكون الإسراء كمقدمة إيناسية للعقل البشري، يصدّق الرسول صلى اللَّه عليه وسلم في أخباره عن المعراج ؛ لأن المسألة سننتهي منها.

إن اللَّه سبحانه وتعالى قد خرق له قانون الزمن وقانون المسافة، وهو الفاعل، وهو الحامل بقوته،

فيكون الذي فعل له ذلك ـ فيما نعلم بالاستدلال من الوصف ومن الطريق ـ قادراً على أن يخرق له قانون السماء وقانون الجو، وقانون كذا، وقانون كذا، فكأن حدث الإسراء كان مقدمة ؛ لتؤنس العقل بقبول حديث المعراج.

وهنا نقف وقفة، فإن القرآن حينما تعرَّض لحدث الإسراء، تعرَّض له صراحة، وحينما جاء لحدث المعراج، تعرض له كما يقولون التزاماً ؛ لأنه سبحانه وتعالى لم يقل: سبحان الذي عرج به من بيت المقدس إلى ـ مثلاً ـ سدرة المنتهى، لم يقل هذا، إنما قال لنا أشياء تستلزم أنه صعد.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨ ﴾ [النجم].

إذن.. سدرة المنتهى، والوقوف عندها، يجب أن نعلم أن رسول اللَّه ﷺ صعد.. لكن لماذا لم يأت بها نصاً ؟ قالوا: إن هذا من رحمة اللَّه سبحانه وتعالى بخلقه، الأمر الذي أمكن رسول اللَّه ﷺ أن يقيم الدليل المادي لسكان الأرض، وقد أتى به صراحة حتى لا نعذر في تبليغه.

أما الأمر الذي قد تقف فيه العقول بعض الشيء، فقد تركه سبحانه وتعالى لمدى يقينك الإيماني، أو مدى تسليمك بالمقدمة التي تلي النتيجة ؛ لأنك ما دمت مؤمناً فستقول: « ما دام صنع به كذا فيما أعلم، إذن هو يصنع به كذا فيما لا أعلم»؛ لأنه حين يكون قد خرق له القانون، فما المانع إذن ما دامت صيغة القانون هي هي.. أيكون قانون السماء صعباً على اللَّه سبحانه وتعالى، وقوانين الأرض ليست صعبة على اللَّه سبحانه وتعالى ما دام غيّر القوانين، وغيّر النواميس ؟!

وهل المعجزات التي أمدّ اللَّه سبحانه وتعالى بها رسله عليهم الصلاة والسلام إلا خرق لنواميس الكون، وخرق لقوانينه، وخرق لحقائقه الثابتة ؟ وما دامت هي

خرق، إذن فلا يستبعد أن تحدث لرسول اللَّه ﷺ.

وإلا فإن الفلاسفة مثلاً حينما قالوا: صحيح أنا مؤمن بأن هناك ربّا خالقاً لهذا الكون، ولكني أقول: إن اللَّه خلق الكون، وخلق حقائقه، وترك الحقائق تعمل عملها، فالنواميس هي التي تعمل، هذا معناه ـ بزعمهم الباطل ـ أن اللَّه سبحانه وتعالى باشر سلطانه في ملكه مرة واحدة، فخلق القوانين في كثير من الأشياء، وأتاح أن تشذ النواميس في كثير من الأشياء الأخرى، تعالى اللَّه عن ذلك علواً كبيرا.

لنعلم أن فوق القانون خالق القانون الذي يستطيع أن يجعل القانون يعمل، ويستطيع أن يعطله. فالمعجزات، كل المعجزات التي حدثت للرسل خرق للنواميس، وإلا فالقانون في الماء السيولة والاستطراق، وليس بإمكان موسى أن يضرب البحر بعصاه فيتجمد الماء ليعبر ومن معه، ثم يضربه مرة أخرى ليغرق فرعون ومن معه، هذا ليس بإمكانه إنما بقدرة الخالق سبحانه.

والنار من طبيعتها أنها تحرق، ويُلقى إبراهيم في النار، وإلقاء إبراهيم عليه السلام في النار، ليس

المقصود منه نجاته، وإلا لو كان المقصود نجاة إبراهيم عليه السلام، لما أمكن اللَّه سبحانه وتعالى الكفار من القبض عليه، أو كان قد أرسل سحابة ممطرة ـ مثلاً ـ تطفئ النار، ولكن المراد أن إبراهيم يُطرح في النار، وتظل النار ناراً، إلا أن ناموس الإحراق يتعطّل فيها، وإلا فلو انطفأت النار بالمطر، لقال الكفار: إن لم يكن هذا المطر قد جاء، لكنا قد أحرقناه. لا، فقد أمسكوا به وقيّدوه، ورموا به في النار، والنار تظل ناراً، ومع ذلك لا تحرق.. هذا هو خرق الناموس.

ما دام الحق هو الذي يخرق الناموس، فيكون الذي آمن بأن رسول اللَّه ﷺ أُسري به من مكة إلى بيت المقدس، واستطاع أن يقيم الدليل المادي على ذلك، وجب عليه الإيمان بالمعراج دون دليل مادي، وإلا ففي المعراج ما يؤكد من الذي صعد إلى السماء ليعطي أماراتها ؟

هل سيقولون له: صف لنا سدرة المنتهى ؟ وصف لنا الطريق إليها ؟ هم لا يعرفون شيئاً عن سدرة المنتهى، ولا يعرفون وصف الطريق إليها، والحق سبحانه وتعالى رحمة بنا ؛ جعل النص على الإسراء الذي يقام عليه

الدليل المادي ؛ لأنه أرضيّ بالنص الصريح، وجعل المعراج بالالتزام لأنه سماوي.

إذن.. إن آية الإسراء كانت إيناساً لعملية الإيمان بالمعراج، فاللَّه سبحانه وتعالى الذي خرق القانون لمحمد ﷺ في المسافة والزمن، خرق له القانون في العروج للسماوات، ولما لم يكن أحد قد صعد إلى سدرة المنتهى، ولما لم يكن أيضاً في الطريق إلى سدرة المنتهى قافلة ما، فلا يمكن أبداً أن يقام الدليل من المخلوقين الذين يسمعون ذلك إلا بصفة أمر حسّي له، وهو الإسراء ؛

ولذلك كانت آية الإسراء ؛ إيناساً للعقول بإمكان الإيمان بما يحدّث به الرسول الكريم ﷺ ؛ كل هذا يؤنسنا بأن الرسول ﷺ حين يحدثنا عن المعراج، وعن مرائيه في المعراج يكون صادقاً فيما حدّث به.

ونلاحظ أن القرآن الكريم حينما تعرض لآية أرضية وهي الإسراء، قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ فكأن الفعل هنا إراءة، وما هي الإراءة ؟ إن

الإراءة هي أن تجعل من لا يرى يرى، وذلك إما بتحويل المرئي إلى قانون الرائي، أو بنقل الرائي لأن ينفذ إلى قانون المرئي.

ويمكننا إيضاحاً لذلك أن نقول:

هناك الميكروب الذي يُكتشف، الميكروب كان موجوداً قبل أن يُكتشف، وليس معنى اكتشافه أنهم أوجدوه من عدم، ولكنه كان موجوداً دون أن يكون للحس طريق إليه، فلما اخترعت المجاهر أمكن للذي لا يُرى أن يُرى.. يُرى بماذا؟ يُرى بعملية تحويل، وهي أننا أتينا بعدسة تكبّر لنا الأشياء، فما لم يكن يُرى أولاً، أصبح يُرى الآن.

ومثلاً: يذهب المريض ببصره إلى طبيب مختص، والطبيب بدوره يأمره بعمل نظارة، والنظارة تكبر له الأشياء، فما لم يكن يراه أولاً رآه ثانياً، وقد يجري له عملية جراحية في عينيه، بحيث لا يحتاج إلى هذه النظارة، فإذا لم يكن في حاجة إلى هذه النظارة ليرى، يقال: رأى هو.

إذن.. الإراءة إما أن تكون بتغير ما فيه إلى قانون

الرائي فيرى، أو بإعطاء شيء في المرئي ليُرى بذاته، فلما جاء في حادث الإسراء، قال: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾؛ لأن محمداً ﷺ على الأرض، وبشري بقانون البشرية، وقانون الإبصار فيه خاضع لقانون الضوء، وقانون الضوء لا يختلف فيه أحد، فإذا كانت هناك آيات من غيب اللَّه في الأرض، فلا بد أن يحدث له إراءة؛ لأنه بطبيعته لا يرى هذه الأشياء، فالإراءة إذن كانت هناك في الأرض، ولكن حينما ينتقل الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى، ويلتقي بالأنبياء الذين ماتوا قبله، ويلتقي بالملائكة، إذن.. فقد تغيَّر شيء في ذاتية محمد ﷺ، وكأنه طرح البشرية، وأخذ شيئاً من الملائكية التي ترى بنفسها.

فلما صعد إلى السماء، قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾، ولم يقل: «أريناه»، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، ففي آية الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ أي «أرينا»، وفي آيات السماء في «المعراج» قال: ﴿رَأَىٰ﴾، فكأن الرسول ﷺ في بشريته في الأرض، كان محتاجاً إلى أن يعدل القانون في ذاته، بالنسبة إلى الرائي والمرئي، وأما في السماء فقد أخذ وضعاً آخر، وهذا الوضع الآخر أصبح

بذاته « يرى » ؛ لأنه أصبحت هناك ملائكية، فالبشرية طرحت في الأرض، أما الملائكية أصبحت هي المسيطرة على رسول اللَّه ﷺ، فأصبح « يرى »، لكن في الأرض كانت « إراءة ».

إذن.. يمكننا أن نقول: إن الرسول في هذه المسألة تعرَّض لثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: كان بشراً.. وجبريل عليه السلام يعرض على محمد ﷺ الأشياء، ثم يقول: ما هذا يا جبريل ؟ فيقول: هذا كذا وكذا.

المرحلة الثانية: لما صعد إلى السماء كان يرى المرائي، فلا يستفهم من جبريل عنها، ويسمع فيفهم، إذن فقد تحول شيء في ذاتية محمد ﷺ، وأصبحت له ذاتية فاهمة بلا واسطة من جبريل عليه السلام، ورؤية بلا واسطة من أحد. ففي الأرض « إراءة »، وأما في السماء فقد «رأى» بالرؤية، ثم بعد ذلك نجد أنه بعد أن انتقل إلى مرحلة يكون فيها ملائكياً كالملائكة، يراهم ويتكلم معهم ويخاطبهم ويفهم، ثم يأتي بعد ذلك في منطقة أخرى بعد سدرة المنتهى، فينتهي حدّ جبريل عليه السلام.

المرحلة الثالثة: يُزجّ برسول اللَّه ﷺ في سبحات النور، ولم يكن جبريل معه، وهذا دليل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد ارتقى ارتقاء آخر، ونقل من ملائكية لا قدرة لها على ما وراء سدرة المنتهى، إلى شيء من الممكن أن يتحمل ما وراء سدرة المنتهى، ودون مصاحبة جبريل عليه السلام.

إذن.. فالرسول ﷺ كان بشراً في الأرض مع جبريل، وبعد ذلك كانت له ملائكية مع الرسل، ومع جبريل في السماء، وبعد ذلك كان له وضع آخر ارتقى به عن الملائكية، حتى إن جبريل نفسه وقف أمام سدرة المنتهى ولم يستطع أن يتقدم ولو تقدم لاحترق، أما رسول اللَّه ﷺ فقد تجاوز السدرة إلى ما شاء اللَّه تعالى.

إذن.. فذاتية محمد ﷺ حدث فيها شيء من التغيير، وذلك التغيير الذي يناسب الملأ الأعلى، فجبريل عليه السلام بملائكيته لا يستطيع أن يخترق، وإلا احترق، أما الرسول محمد ﷺ فاخترق ولم يحترق، وعلى هذا هناك ثلاثة أشياء حدثت لمحمد ﷺ:

أولاً: بشرية في الأرض معهودة بالمدد.

ثانياً: وبعد ذلك ملائكية في السماء قبل سدرة المنتهى.

ثالثاً: ثم بعد ذلك ملائكية فوق الملائكية، وهي التي كانت بعد سدرة المنتهى، وهي التي كان فيها ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] وسمع فيها كلام اللَّه سبحانه وتعالى، بل من العلماء من قالوا برؤية رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لربه، استناداً إلى أحاديث صحيحة وردت في هذا الشأن.

ثم يأتي العلم الحديث ليقرب لنا هذه المسائل، ففي الماضي لم يكن أحد يستطيع أن يصعد في السماء، أما الآن فقد وصل الإنسان إلى القمر، ويحاولون الوصول إلى المريخ.

فإذا كان البشر استطاعوا أن يرسلوا إنسانا إلى مكان ليس فيه هواء، ويعطيه حياته، ويعيش مدة طويلة، ويدور في الفضاء. إذا كان البشر استطاعوا أن يفعلوا ذلك، ألا يستطيع رب محمد ﷺ أن يصنع له لحظة يصعد فيها إلى السماء، ويظل المدة التي أرادها اللَّه،

ويستقبل من ربه ما شاء له، ثم يعود إلى الأرض ؟! إذا كان البشر يستطيعون ذلك، فقدرة الحق فوق كل ذلك، فهذه أمثلة تُقرِّب لنا المسافات في هذه الأشياء. والحق سبحانه وتعالى، حين يخرج رسوله ﷺ إلى أمر كوني معجز، لا بد أن يكون له فيه عمل، مثل شقّ الصدر وغيره من الأحداث. لأننا ـ نحن البشر ـ حين ننتقل من بلد إلى بلد نعدّ أنفسنا لجو هذا البلد، فنأخذ من العلاج ما يخصنا ضد أمراض معينة، وأشياء تناسب جو هذا البلد الذي سنذهب إليه. فربنا سبحانه حين يريد أن ينقل رسوله ﷺ إلى السماء، يصنع له عملية مثل هذه. وإذا كان سيلتقي بمن سبقه من الرسل الذين توفاهم اللَّه، فلا بد أن يحدث له شيء في تكوينه ﷺ، بحيث يستطيع أن يلقى الملائكة، ويلقى جبريل، ويلقى الأنبياء.

وإذا ما استقرأنا القرآن الكريم، نجد فيه آية تدلنا على صدق الرسول ﷺ في هذه الأشياء. فالرسول حين يطلب اللَّه منه أمرا، لا بد أن ينفذه، فإذا كان اللَّه تعالى قد قال له في كتابه: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]

فاللَّه تعالى طلب من رسوله ﷺ أن يسأل من سبقه من الرسل، فكيف يسألهم ؟ لا يمكن أن يسألهم إلا إذا وُجدت مواجهة. فإذا حدثنا أنه التقى بالأنبياء، نقول له: صدقت ؛ لأن هذا تصديق لقول اللَّه تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ؛ والفكرة كلها، دائرة حول يقين المؤمن بصدق رسول اللَّه ﷺ، سواء فهمها عقلك أو لم يفهمها. فما أكثر ما لم يفهمه عقلك في الكون، وظل غير مفهوم، إلى أن يفهم تباعا، جزء اليوم وجزء غدا.

الفرق بين الرؤيا والإراءة

قال موسى عليه السلام لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] نلاحظ هنا أن السؤال من موسى عليه السلام كان من عين البشرية التي كانت لمحمد ﷺ أيضاً؛ ولأن موسى عليه السلام لم يسأل « الرؤية »، وإنما سأل «الإراءة »؛ لأنه في الأرض.

و ﴿أَرِنِيٓ﴾ المطلوب فيها « الإراءة »، بمعنى: إن تُرنِي أنظر، وإن لم تُرِني لا أنظر، فكأنني بطبيعة تكويني، لا أقدر أن أنظر إليك. ولكن إن عدَّلت فيّ وأريتني، أرى وأنظر. ويبدو لنا أن الذي طلبه موسى عليه السلام، «الإراءة » وليست « الرؤية »؛ لأنه يعلم بطبيعة تكوينه أنه لا يرى، ولكن الذي خلقه يستطيع أن يريه. فطلب موسى عليه السلام كان « الإراءة »، كالذي حدث لمحمد ﷺ في آية الإسراء

الأرضية « ليريه »، أيضاً هي «إراءة»، وبعد ذلك نبحث بحثاً آخر في الجوانب. ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، كان موسى عليه السلام يقول: أنا بطبيعة تكويني، لا أقدر أن أراك. لكن أنت خالقي، وخالق القوانين، فتستطيع إن أمددتني بقوانين من عندك أن أرى، فإن أريتني أنظر، وإن لم ترني لا أستطيع. فماذا كان جواب الحق سبحانه وتعالى له؟ قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾.

إذن.. فالمانع ليس من جهة الحق سبحانه وتعالى، ولكن من جهة موسى عليه السلام. لم يقل له: « لن أُرى »، بل قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي أن طبيعتك التكوينية لا تقوى على رؤيتي. ولو أن الحق لا يُرى، لقال له: « لن أُرى »، وينتهي الإشكال، ولكن قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾.

وبعد ذلك قال له: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، لقد لفته إلى شيء مادي موجود، وهو ﴿ٱلۡجَبَلِ﴾. والجبل لا شك أنه

موجود أمام موسى عليه السلام، والجبل عندنا وعند موسى عليه السلام أقوى بنيةً من موسى عليه السلام، وأشد صلابة.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، إذن.. لا مانع من أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى على بعض الخلق، وقد تجلى الحق سبحانه وتعالى على الجبل، ولكن الجبل الصلب القوي، لم يتحمل هذا التجلي، فقد تفتت مع صلابته ومع قوته. حينئذ تفهم أن السر في قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: أن طبيعتك وتكوينك، لا يتحملان رؤيتي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] موسى صعق لرؤية المتجَلَّى عليه!

إذن.. فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ دليل على أن طبيعة تكوين البشر ليست معدّة إعداداً بحيث تستطيع أن ترى ربها. أما اللَّه سبحانه وتعالى فمن الممكن أن يُرى، ولكن بعد أن يعدل سبحانه من طبيعتنا، بحيث تقوى على رؤيته. والدليل على

ذلك أن اللَّه سبحانه وتعالى تجلى على الجبل، وما دام قد تجلّى على الجبل، والجبل خلق من خلقه، إذن.. فمن الممكن أن يتجلى على بعض خلقه. ولكن هل البعض من خلقه يتحملون التجلي أم لا يتحملون ؟ من رحمته تعالى أنه لا يتجلى لنا ؛ لأن طبيعة تكويننا لا تتحمل ذلك التجلي، والجبل مع ضخامته كيف أصبح؟ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ فسؤال موسى للَّه سبحانه وتعالى: ﴿ أَرِنِيٓ ﴾ دليلٌ على أن ذلك ليس محالاً، بل ممكناً ؛لأن كثيراً من الرسل لما سألوا،قال اللَّه لهم: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ ﴾ واللَّه لم يقل لموسى عليه السلام: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ ﴾ [هود: ٤٦]، وإنما قال له: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ أنت، ولكن: ﴿ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ إذن.. فعدم تجلي اللَّه سبحانه على موسى عليه السلام رحمة به حتى لا يتفتت تفتت الجبل، الذي هو أقوى من موسى عليه السلام.

نعود إلى حديثنا عن الإسراء وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] نحن قد قلنا: إن الذي كان في الأرض «إراءة»؛ لأن فيه بشرية، فلما انتقل إلى السماء، انحلت البشرية بعض الشيء عن رسول اللَّه ﷺ، وأصبحت الملائكية هي الطاغية. فأصبح يخاطب الملائكة، ويكلم الرسل الذين ماتوا، ويلتقي بهم.

وجاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة التي تكلمنا عنها، وقلنا: إن جبريل عليه السلام نفسه وهو ملك من الملائكة العظام لم يقدر عليها، حيث قال: إلى هنا مكاني، وذلك يدل على أن محمداً ﷺ، نُقل نقلة أخرى فوق الملائكية، لماذا؟ لتلقي كلام اللَّه المباشر وللرؤية.

قال الحق تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ

ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم].

هنا وقفة، إن القرآن كلام اللَّه، وكل لفظ له إيحاؤه. فإذا قال اللَّه: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾، أي: أفتجادلونه إن قال لكم رأيت كذا وكذا وكذا.

وقول اللَّه تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾، هذا إخبار من اللَّه سبحانه وتعالى، كأن محمداً ﷺ قال ما لا تطيقه عقول البشر. فقال: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾، وذلك رحمة من اللَّه سبحانه وتعالى بعقول البشر. لذلك قال: لماذا تجادلونه في هذا؟ ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾، فذلك إخبار من اللَّه سبحانه وتعالى، وليس إخباراً من محمد ﷺ، حيث لم يقل محمد وإنما اللَّه سبحانه القائل.

وقوله تعالى: ﴿ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ المفسرون يجعلونها وصفاً للآيات، فهو قد رأى آيات ربه،

الآيات الكبرى العظيمة، أي أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه، فكأن آيات اللَّه سبحانه وتعالى، التي حدّث عنها، هي آيات من آيات، وحسبها عظمة وعجباً، أن تنسب إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

وإذا كانت العقول تقف وتحتار أمام آيات اللَّه جل جلاله وعز شأنه، فكيف تتصور الآية الموصوفة من اللَّه سبحانه وتعالى، بأنها الآية ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ ؟ أي: لقد رأى الكبرى من آيات ربه، فكأن: ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ هي المفعول، وليس وصف الآيات، ولكن: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ . . ماذا رأى ؟ رأى الآية ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾، التي هي أعلى من هذه الآيات.

لا شك أن جبريل كان معه في الأرض، وكان يشاركه في هذه المرائي، وفي السماء أيضاً كان معه جبريل، لكن في الآية ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ كانت المرحلة الأخيرة، التي لم يقدر عليها جبريل، ولا أحد من الملائكة، وقد انفرد رسول اللَّه ﷺ بها تكرمة من الملك العظيم لصفيه وخليله ﷺ.

وإذا نظرنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾، قال جمهور المفسرين ﴿دَنَا﴾ الذي دنا جبريل عليه السلام، والسبب أن جبريل مع محمد ﷺ، وما دام جبريل معه، فمن الذي دنا ؟ ومن الذي كان قاب قوسين أو أدنى ؟

أقول: ذلك ملحظ آخر يعطينا أن الدنو في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ هو دنو بشيء آخر، من ربه أو ربه منه، وهو إيناسٌ بما يكون من رؤيته للحق سبحانه وتعالى، أو من كلام الحق سبحانه وتعالى له، واللَّه تعالى أعلم.

المرائي والصور في الإسراء

الحق سبحانه وتعالى تكلم عن الإسراء برسوله ﷺ في سورة « الإسراء »، ثم تكلم في سورة أخرى عن المعراج، وجاء بهاتين الآيتين للنبي ﷺ. وسورة الإسراء لها اسمان: تسمى سورة « الإسراء »، وتسمى سورة « بني إسرائيل ». فالإسراء في استهلال السورة، في آية واحدة فقط. وبعد ذلك تتحدث السورة عن بني إسرائيل، وقصتهم مع موسى عليه السلام إلى آخر ذلك. ونحن قلنا: إن الحكمة من مجيء آية الإسراء بعد سورة النحل ؛ أنها ختمت بقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل] ولكن لماذا جاء الحديث عن بني إسرائيل، بعد ذكر الإسراء ؟ قالوا: لأن

اليهود ألفوا أن موسى عليه السلام أرسل إلى بني إسرائيل، فإذا جاء محمد ﷺ وقال: أنا رسول للناس كافة، فسيقولون لا. إن كنت رسولا فأنت مرسل للعرب فقط، كما أرسل موسى إلى بني إسرائيل. ولذلك ربنا سبحانه جعل بيت المقدس القبلة الأولى للمسلمين، وأسرى برسوله إليها؛ حتى يعلم القاصي والداني أن بيت المقدس أحد مقدسات الإسلام؛ وحتى لا يدعي أحد من غير المسلمين أن هذه له. وقد اتجه المسلمون إليها في الصلاة في بداية الإسلام ؛ لذلك ذكر الحق سبحانه موضوع الإسراء في بداية السورة، وبعد ذلك ذكر قصة بني إسرائيل.

إن اللَّه سبحانه قدَّم آية الإسراء ؛ لأنها آية أرضية، من الممكن أن يقام عليها الدليل. وقد أقام الرسول ﷺ الدليل عليها، فوصف بيت المقدس، وأخبرهم بالعير في الطريق، وموعد وصولها وأوصافها، فخرق له الناموس في المسافة بين المكانين وقصر الزمان. حتى إذا حدثنا أن الناموس

خُرق له في الصعود إلى السماء، نصدقه ؛ لأنه أثبت لنا أنه خرق له الناموس فيما لا نعلم، فهذا شيء ليس بمستغرب

والحق سبحانه وتعالى أعطى رسوله ﷺ هذه المنزلة ؛ للجفاء الذي لقيه من أهل الأرض، فأعطاه حفاوة الملأ الأعلى، وأراه الآيات الكبرى.

والرسول ﷺ نال هذه المنزلة ؛ لأنه عبد للَّه.

إذن.. فعبودية محمد ﷺ لربه، هي التي أعطته هذه المنزلة. وهناك فرق بين عبودية الخلق، وعبودية الخالق. فعبودية الخلق مذمومة ؛ لأن في عبودية الخلق للخلق، السيد يأخذ خير عبده، ولكن في عبودية الخلق للخالق، فالعبد يأخذ خير سيده. وقد أخذ محمد ﷺ هذا الخير.

إن منهاج الرسل دائماً، أنهم مرسلون من اللَّه سبحانه وتعالى، خالق الإنسان، بقانون صيانة ذلك الإنسان ؛ لأننا جميعاً مقتنعون بأن صانع الصنعة، هو الذي يقرر قانون صيانتها، وأن صانع التليفزيون

هو الذي يقرر قانون صيانته، وكيفية استعماله وتشغيله، وهكذا... إلخ.

إذن.. فكل مصنوع صانعه هو الذي يضع قانون صيانته. وحيث إنه لم يوجد أحد يدّعي أنه خلق الإنسان.

إذن.. فالإنسان صنعة اللَّه سبحانه وتعالى، واللَّه سبحانه وتعالى هوالذي يحدد قانون صيانة ذلك الإنسان؛ لأن اللَّه لا يخلق خلقه، وبعد ذلك يتدخل الخلق ليضعوا قانون الصيانة، نيابة عن الخالق جل وعلا إذا حدث ذلك، تكون هذه حالة كحالة أن أذهب أنا ـ مثلاً ـ بالتليفزيون إلى الجّزار؛ لكي يصلحه لي، لا، فالذي يضع قانون صيانة الشيء هو الذي خلق، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] والذي يدلك على ذلك، أن كل تشريع من تشريعات البشر إن أُحسن الظن برغبتهم في الخير، ورغبتهم في الإصلاح، عرضة لأن يتغير ويتبدل، وأن يذهب ويجيء غيره، ولا يبقي قانون من قوانين الوضع

البشري، إلا ببقاء السوط الذي يحميه. فإذا ذهب السوط الذي يحميه انحل القانون بطبيعته، فكأن وراء كل قانون بشري قوة تحميه، وحين تذهب هذه القوة يضمحل ويتلاشى.

وأحب أن أقول للذين يقننون: إن القوانين البشرية تقنن للنفس الإنسانية، فماذا عرفتم في النفس الإنسانية؟ أنتم تعرفون زاوية، ولكنكم تجهلون زوايا ماهية النفس الإنسانية ؟ هي ليست بطناً ومعدة فقط، وهي ليست عقلاً يعي ويفهم فقط، وهي ليست وجداناً فقط، إنها ملكات متعددة، وأنتم إلى الآن لا تعرفون عدد هذه الملكات، فكيف تقننون لشيء لا تعرفونه.

إذن، فالمقنّنون يعرفون شيئاً فيقننون له، ويتركون الملكات الأخرى النفسية جائعة. وهنا.. ماذا يحدث للإنسان المتأثر باضطراب هذه الملكات، وفيه ملكة شبعت وملكات جائعة ؟ لا بد أن يحصل التمزق والقلق النفسي له. والدليل على ذلك مثلاً: أولئك

الذين يعتبرون النظام الاقتصادي، هو كل شيء في الدنيا، كالسويد، التي هي بالإحصائيات أرقى دولة في مستوى المعيشة. فالفرد فيها مرفه رفاهية عالية جداً، ومع ذلك ففي هذه الدولة الراقية، أعلى نسبة انتحار بين شبابها، علاوة على أمراضهم العصبية والجنونية.. إلخ.

وهذا دليل على أنه ليست المعدة هي كل شيء، ولا الماديات هي كل شيء، فهناك ملكات جائعات في هذه النفوس، وإلا فما الذي يدعو الإنسان إلى الانتحار، وترك الحياة ؟ السبب أن لديه قلقاً ! وهو بحد ذاته لا يعرف مصدره!! ولا يعرف طريقاً إلى علاجه!! لأن فيه ملكات نفسية جهلها البشر، فلم يقننوا لها، وإن قننوا لها فتقنين جَاهلٍ بها، لم يخلقها.

إذن.. فالذي يخلق الشيء هو الذي يقنن له، وعلى ذلك: فالحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الخلق، وهو الذي خلق النفس البشرية، وهو الذي

يقنّن لها. وقد جاءت الرسل لتنظيم حركة الحياة للإنسان، وبقانون صيانته. وما دامت هذه هي مهمة الرسل عليهم الصلوات والسلام، وهم بدورهم سيتعرضون لقوانين اقتصادية وسياسية، وعملية واجتماعية وخلقية، وسيتعرضون لأشياء كثيرة، منها القوانين التَّعبديَّة، والقانون التَّعبدي الذي يقول فيه اللَّه سبحانه وتعالى: تقرب إليّ بكذا ، ليس للعقل مجال فيه ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يقول لك: تقرب إليّ بأن تصلي خمس صلوات بشكل مخصوص، ولكن في القوانين الأخرى، التي تتعلق بنظام المجتمع، سياسةً أو اجتماعاً، أو... أو... إلى آخره، فناقشها ما شئت بعقلك، وقارنها بأي قانون اقتصادي في العالم، وستجد أن القوانين التي وضعها الإسلام لزوايا الحياة الاجتماعية، هي المتفوقة، وهي ذات السبق.

إذن.. ففي كل التعبديات لا مجال للعقل، ويجب التقرب إلى اللَّه سبحانه بما يريد. أما ما عدا

التعبديات فناقشها بعقلك، وقارنها بأرقى المستويات، وستجد السبق والتميّز لها، مع الشمول والاستيعاب. والدليل على ذلك: أن الأشياء التي كان أعداء الإسلام، يأخذونها على الإسلام، حينما كانوا يعدّلون قوانينهم، كان القانون بعد تعديله، يلتقي مع وجهة نظر الإسلام.

فمثلا: كانوا ثائرين على الإسلام في مسألة الطلاق، وبعد ذلك انتهوا في إيطاليا، وفي بعض الدول الأخرى، إلى أن الحل السليم والوحيد لمشكلات أسرية مستعصية هو « إباحة الطلاق »؛ وذلك لأنهم وجدوا شرور عدم الطلاق أكثر؛ ولذلك فهم حُكْماً يرتقون أو يستنيرون، أو تعذبهم هذه الحياة بواقعها ! فيعودن بشكل مباشر إلى قانون الإسلام.

ومثلا نعرف أن أمريكا تُنفق ولا تزال، من أجل محاولة تحريم أو تخفيف شرب الخمور، ملايين الدولارات، والإسلام حرّمها تدريجياً حتى يتيسّر

للناس الطاعة دون مشقة وانتهى الناس عنها، وتعدد الزوجات، الذي جعلوه عيباً من عيوب الإسلام، هم الآن يبحثون في ضمّه لقوانينهم ؛ لأنهم يعتبرونه أفضل من النظام الموجود لديهم.

والقوانين الاقتصادية أيضاً، إذا نظرت إليها ووجدتها ترقى، فستجدها في رقيها تحاول أن تلتقي مع أحكام الإسلام. فالإسلام جاء من أقصر طريق.. لماذا ؟ لأنه تقنين العليم بمن خلق.

حين أخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى بالمنهج، نجد فيه أشياء نسميها نحن في الوسائل التربوية الآن: وسائل إيضاح. ووسائلُ الإيضاح هذه تنقل الكلام النظري إلى كلام عملي، إذا هي أمر مادي عملي، يرينا صدق القضية النظرية، فإذا قلت: الحرارة تمدّد الأجسام، فلكي نثبت ذلك لا بد أن نوضحه بشكل عملي. تماماً كما نأتي بحلقة معدنية ونمرر بها الكرة وسنجد أن الكرة تمرّ من الحلقة بسهولة، ولكن لو تم تسخين الحلقة المعدنية وحاولنا بعد ذلك إدخال

الكرة في الحلقة المعدنية فلن تدخل! لماذا ؟ لأن حجم الحلقة قد تمدّد بالحرارة، هذه هي وسيلة إيضاح قد بيّنت لنا هذه المسألة النظرية.

والدين يأتي بتشريعات، فالرسول ﷺ رأى في هذه المرائي أشياء، وهذه الأشياء تعطي له واقع الأوامر المنهجية، التي أتى بها التكليف. فأول شيء يعرضه لنا مسألة الفطرة، وتغيير الفطرة. وقد عُرض على رسول اللَّه ﷺ كأس من اللبن، وكأس من الخمر، فاختار عليه الصلاة والسلام كأس اللبن، وهنا قال له جبريل: « هديت للفطرة » ولنتساءل: ما معنى: هديت للفطرة؟

كأن الفطرة بطبيعتها نقية ؛ لأن اللبن الذي نشربه من أمهاتنا، أو اللبن الذي نشربه مثلاً من الأنعام التي خلقها اللَّه لنا، لا صنعة للإنسان فيه أبدا !! إذن.. إننا نشربه كما ينزل، فهذه هي الفطرة، لكن في الخمر نحن نأخذ رزقاً من الرزق الحسن، كالعنب مثلاً، وبعد ذلك نأتي فنتلفه حين نخمّره

ونجعله ينتن ويتحلل، إذن.. نحن قد أخرجناه عن فطرته.

لذلك حينما يعرض القرآن ذلك يأتي بالحيثيات. كان العرب يشربون الخمر ويقولون: « سَكَر »، يقول اللَّه تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧] صحيح أنهم يأخذون منه ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ تأمل قوله تعالى: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فحينما جاء بالرزق وصفه بالحسن، وفي قوله: ﴿سَكَرًا﴾ سكت عنه؛ لأنه غير حسن، ولو قال: « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً أحسن » لكان السكر أصبح فيه شيء من الحسن، لكنه أتى بكلمة ﴿حَسَنًا﴾ حتى تكون مقابلة للقبح.

إذن.. فقول جبريل عليه السلام لرسول اللَّه ﷺ: « أصبت الفطرة » أي: أنك لم تأخذ نعمة من نعم اللَّه سبحانه وتعالى، وأدخلت عليها عملية إفساد. خذ النعمة وأدخل عليها عملية إصلاح، كاللحم النيئ

مثلاً: علينا إنضاجه، والخضار أيضاً: علينا طهوه، لكن أن تأخذ عنباً وتضعه في برميل حتى يتعفن ويتخمر، هنا تكون قد أخرجته عن طبيعته وعن فطرته. إن ذلك معنى « أصبت الفطرة ».

ولماذا هذا المرئي ؟ قالوا: لأن العقل هو مناط التكليف من اللَّه سبحانه وتعالى، والخمر جاءت لتستر العقل ؛ لأنه المدخل لتنفيذ أوامر اللَّه سبحانه، فالمجنون لا يكلفه اللَّه سبحانه وتعالى ؛ لأن آلة الاختيار بين الأبدال لديه معطلة. ومعنى عَقَل: أن يختار بين أبدال، فإذا كان أمر لا بديل له، فلا عمل للعقل فيه، وما دام وجد الاختيار بين الأبدال، فلا بد أن يكون العقل موجوداً سليماً، ومقاييسه صادقة ؛ وذلك حتى تختار البديل الحسن وهو « الخير »، ولا تختار البديل القبيح وهو «الشر». إن الإنسان الذي يشرب الخمر إنما هو يغيب عقله عن الواقع الذي يعيشه. فكأنه عمد إلى النعمةِ الكبرى، ومنفذِه إلى الإيمان باللَّه سبحانه

وتعالى، ومناط تلقي التكليف من اللَّه سبحانه وتعالى، فعطله عن أداء المهمة التي خلقه اللّه لها.

وكل المرائي التي بعدها، تستلزم وجود العقل التكليفي فيها، فالجهاد والزكاة والصلاة، كل هذه فرائض لها أحكامها وشروطها.

فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد بالمنظر الأول أن يلفتنا إلى أن الفطرة طبيعتها سليمة، فلا تفسدوها أنتم بتصرفاتكم. فهذا اللبن صافٍ صفاء الفطرة، والخمر أنتم أفسدتموها بصنعتكم فيها، فقد تدخلتم فيها ببشريتكم، ولذلك أفسدتموها. فبعد أن كانت نعمة اللَّه سبحانه وتعالى سليمة، جعلتموها فاسدة.

ويجب أن نلتفت إلى أمرٍ خطر نغفل جميعاً عنه، وهو أن اللَّه سبحانه وتعالى خلق لنا العقل ؛ حتى نختار به بين الأبدال، فإذا أتيتَ أنتَ وسترته بالخمر، فتكون رددت على اللَّه سبحانه وتعالى نعمته الكبرى عليك، والتي قد تميَّزت بها عن سائر الخلق.

قد نجد الإنسان الذي يفعل ذلك يقول: إنني أستر همومي وأحزاني، ولكن الرد عليه يكون بأن نقول له: ليس حل المشاكل في الهروب منها، إنما يكمن حلّها في أن تواجهها. فالحق لا يريد منك أن تنسى مشاكلك، وتهرب منها وتسترها بالخمر، ولكن واجهها بعقلك المؤمن. وما دمت ستواجهها بعقلك، فلا بد أن تحافظ على هذا العقل ؛ لكي يكون سليماً قادراً على حلّها، وذلك بأن تمنع عنه أي شيء يطمس قانون اختيار الأبدال فيه. فهذا هو السبب في أن ذلك هو أول منظر من المناظر التي رآها النبي ﷺ.

وبعد ذلك مثلا نجد منظراً آخر، وهذا المنظر الآخر: أنه وجد قوماً يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، وتتكرر هذه العملية عدة مرات! فسأل جبريل من هؤلاء ؟ قال: المجاهدون في سبيل اللَّه سبحانه وتعالى؛ لأن الجهاد في سبيل اللَّه سبحانه وتعالى، هو الوسيلة الناقلة لهدي اللَّه سبحانه وتعالى إلى

خلقه. فالجهاد في سبيله هو: الانتشار بالدعوة المنهجية التي جاءت من اللَّه سبحانه وتعالى إلى الناس كي يهتدوا إليها، والعمل على إزالة المعوقات التي تصد الناس عن الإيمان باللَّه الواحد الأحد.

إذن.. فلا بد لهؤلاء المجاهدين أن تكون لهم ثمرات متعددة، ولماذا الثمرات المتعددة ؟ لأنهم يجودون بأموالهم ويجودون بأرواحهم. فالذي يجود بماله وبروحه في سبيل اللَّه سبحانه وتعالى، نجد اللَّه سبحانه وتعالى يضاعف له الأجر أضعافاً مضاعفة.

إذن.. فالرسول ﷺ حينما أراه اللَّه سبحانه وتعالى هذه الصورة، فقد أراه إياها ؛ ليوضح هذه الحقيقة للذين يجاهدون في سبيل اللَّه سبحانه وتعالى، ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]. ولا شك أن الناس يجودون بالأشياء ؛ طمعاً فيما تأتي به من الخير. فالفلاّح مثلاً يكون عنده جوالان من القمح، وعندما تأتي أيام

الزرع يأخذ جوالاً مما عنده، فينقص ما عنده جوالاً، وبعد ذلك يطرحه في الأرض، لكن الجوال الذي طرحه في الأرض سيزيد له عشرات الأجولة بعد ذلك، وإن الحبة من القمح ستأتي له بحبات كثيرة.

فإذا كان ذلك عطاء الأرض الصمّاء، التي هي خلق من خلق اللَّه سبحانه وتعالى، فكيف يكون عطاء اللَّه سبحانه وتعالى ؟!

إذن.. فاللَّه تعالى يؤنسني بالأمر المادي، ولذلك فإذا جُدْتَ أيها المجاهد بمالك ونفسك، فذلك كله عند اللَّه سبحانه وتعالى يضاعفه لك، وإذا كانت الأعمال بنتائجها، فنتيجة هذا هو النفع العام لك.

وبعد ذلك يُرِي اللَّه سبحانه وتعالى رسوله ﷺ منظراً آخر وهو: الدنيا. ونحن نعرف أنها زينة وزخارف ولهو ولعب، وذلك في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، فاللَّه سبحانه وتعالى أراه هذا المنظر. منظر الدنيا. بأنها امرأة

عجوز، وعليها من كل زينة. فقال له: ما هذه يا جبريل ؟ قال: « لم يبق من عمر الدنيا، إلا ما بقي من عمر هذه ». والرسول ﷺ يقول: «بُعثت أنا والساعة هكذا» ولم يبق من عمر الدنيا إلا كما بقي من عمر هذه المرأة، فإذا كان عمرها هذا، فلماذا تشغلون أنفسكم بها هذا الشغل الكبير ؟ أعطوها على قدر عمرها.

وإذا فرضنا أنه بقي من عمر الدنيا الكثير فهذا الكثير لغيرك، ما حظّك أنت فيه ؟ إذا قست الدنيا بعمرك أيضاً، وجدت أنها بقيت دنيا للكل، ولكن لخلق غيرك، فمهما طال أمدها، حتى ولو كان قد بقي في عمرها مليون سنة مثلاً، فإنها لن تمكث المليون سنة لك.

إذن.. يجب أن تقيس الدنيا بعمرك أنت فيها، فإذا كان متوسط عمر الإنسان « ستين سنة » أو «سبعين سنة»، فإذا ضحّى الإنسان بهذه السنين فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة أنني سأضحي بشيء محدود،

لكن في غاية غير محدودة وهي الآخرة، هذه هي أول مقارنة.

أما الثانية: فإن السبعين سنة ليست متيقَّنة، فقد يموت الإنسان صغيراً.

فوجودي وعمري في الحياة الدنيا غير متيقَّن، ولكن الآخرة هي المتيقَّن.

وأما نعيمي في دنياي فعلى قدر من ؟ إنه على قدر إمكاناتي، وعلى قدر جهدى في الأخذ بالأسباب، وعلى قدر تصوراتي في النعيم. أما نعيمي في الآخرة، فهو بقدرة القادر سبحانه وتعالى، وعطائه في النعيم.

إذن.. حينما نأتي ونقارن عمر الدنيا بعمر الإنسان، سنجد أن المقارنة ليست في صف الإنسان.

فهو.. محدود هنا، وغير محدود في الآخرة.

غير متيقّن هنا، ومتيقّن في الآخرة.

النعيم الدنيوي على قدر إمكاناتي، ونعيم الآخرة بقدرة اللَّه سبحانه.

فإذا كانت الدنيا عجوزاً، ولم يبق منها إلا هذا، فما الذي يجعلني أجعل الدنيا هي كل همّي ؟ هذا هو أحد المرائي التي رآها رسول اللّه ﷺ.

وهناك منظر آخر: فالرسول ﷺ رأى هناك أناساً، والمقص يقصّ شفاههم وألسنتهم، لماذا ؟ لأن الشفاه واللسان، هما الأداتان اللتان تتعاونان في إخراج الكلام. فقال لجبريل عليه السلام: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: « هم خطباء الفتنة » !! ومن هم خطباء الفتنة ؟ قال: الذين يقولون ما لا يفعلون، فألسنتهم أحلى من العسل، وفعلهم كالأسى. فآفة كل دعوة هم: خطباء الفتنة فيها، يقولون كلاماً يسمعه الناس، ولهم فعل يخالف ما يقولون، فيقارن الناس فعلهم بقولهم، فيرون كلاماً يقال، وفعلاً يخالف ما يقال.

وإذا انفصلت الكلمة عن « السلوك » انقلبت المناهج كلها.

بمعنى: إذا جلست أشرح لابني مضارّ الكذب،

وأحدّثه عن الصدق يومياً، فإذا جاء يوم وطلبني شخص وأنا بالبيت، وكان ردّي: قولوا له: إنني غير موجود، هذا الفعل يهدم كل شيء من قولي، وبعد ذلك يستقر الكذب في وجدان الابن.

إذن.. إن هناك كلاماً يُقال، وفعلاً يُفعل مضاداً له؛ وبذلك تكون الكلمة قد انفصلت عن السلوك.

وأيضا خطباء الفتنة هم الذين يبررون للناس تصرفاتهم، فيجعلون الدين مبرراً لتصرفاتهم. بمعنى: أن التصرف يكون أولاً، ثم يطلبون له مبرراً من الدين، والدين ليس تبريراً، ولكنه دين تدبير للمسائل. هو الذي يدبّر الأمر أولاً، فلا تقل: إن المجتمع حلّت به البلوى، وبعد ذلك تحاول أن تجد حلاً من الدين لبلاء المجتمع، فكأنك ستهبط بمنهج اللَّه إلى مستوى أفعال الناس، وهذا لا يصح فالأصل أن منهج اللَّه جاء ليرفع الناس، لا ليهبط إلى مستواهم. ولذلك تجد في كلام اللَّه سبحانه وتعالى، الدعوة إلى السمو والعلو.

يقول سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا﴾ [آل

عمران: ٦٤] ﴿تَعَالَوْاْ﴾ معناها: أقبلوا، نعم هي تحمل هذا المعنى، لكن ﴿تَعَالَوْاْ﴾ هنا معناها: ارتفعوا إلى المستوى الأعلى؛ لتأخذوا المنهج من اللَّه سبحانه وتعالى.

لا تتركوا أنفسكم في حضيض مدنيَّتكم المزعومة، ولنا أن نعلم أن أي مدنية لا تحرسها العقيدة فهي مدنيّة زائفة زائلة.

إذن.. خطباء الفتنة، هم الذين يقولون ما لا يفعلون، أو هم الذين يبررون لكل منحرف انحرافه كما أنهم يُلبسون الحق بالباطل.

وبعد ذلك تأتي المرائي الأخرى، وهي مركّزة حول معانٍ تتعلق بالمال وتتعلق بالأعراض وتتعلق بالكلمة.

أما الذي يتعلق بالمال، فإن الحق سبحانه وتعالى عرض على رسول اللَّه ﷺ آية. هذه الآية: أنه رأى قوماً يسبحون في بحر من دم، ثم مع ذلك يلقمون الحجارة. فسأل عنهم جبريل عليه السلام، فقال: هؤلاء أكلة الربا.

وكونهم يسبحون في بركة من الدم، نحن نعلم أن الدم يفيد وينفع حين يكون سارياً في الشرايين والأوردة، ولكنه حين يخرج للْهواء يتجلط ويصبح شيئاً ثقيلاً ؛ لذلك فهو يثبط من يسبح فيه، ومن المفترض أن الدم ينفع في مكانه المخصص له لا أن يسبح الإنسان فيه، ومع ذلك يلقم الحجارة.

إذن.. لم يغنِهِ الدم الذي يسبح فيه عن غذائه الأساسي، بل هو قد استعاض عن الغذاء الأساسي الذي هو الدم بأن يلقم الحجارة. وذلك أمر طبيعي؛ لأن ما معنى المراباة ؟ المراباة: أن تستغل فرصة عدم معْدَم، وفقر فقير ؛ لتزيد أنت من مالك.

معنى ذلك أنك قد جعلت نفسك كل شيء، وجعلت أنانيتك في الانتفاع هي كل شيء، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض مباحة لجميع الناس، يعملون فيها طاقاتهم المخلوقة للَّه سبحانه وتعالى، بعقولهم المخلوقة للَّه. أي أنك تكدح في المادة المخلوقة للَّه، بالفكر الذي خلقه اللَّه، وبالقوة

والطاقة التي خلقها اللَّه، فلا أقل من أن تجعل اللَّه مضارباً معك ؛ بمعنى أن للَّه ما خلق من مال، ولك أنت العمل. بل أنت ليس لك عمل أنت لك فكر تخطط به من فعل اللَّه، وأرض تحصد فيها من خلق اللَّه، وطاقة وقوة تعمل بها من خلق اللَّه، وبعد ذلك تكتسب شيئا. فلا أقل من أن تتصدّق على المعْدَم، الذي لا يجد القوة التي يعمل بها، أو الذي لا يجد المجال ليعمل، أو الذي لا يجد الفكر ليخطط. لا أقل من أن تعطيه شيئا من مال اللَّه سبحانه وتعالى، الذي آتاك إياه، فكونك تستغل ضعف المعدم وفقره ؛ لتزداد أنت شيئاً من الغني، فهذا هو الظلم الفاحش.

إذن.. فاللَّه سبحانه وتعالى ضرب مثلاً ؛ حتى يبيّن للناس أنهم بعملهم القبيح هذا لن يستفيدوا منه شيئاً، وأنهم سيكسبون دماء لا لتجري في عروقهم، ولكن ليسبحوا فيها، فانظروا الذي يسبح في الدم، ما فائدته منه ؟! ومع ذلك غذاؤه الحقيقي أنه يلقم

الحجارة. هذه صورة من صور الربا، التي أراها اللَّه سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ.

وبعد ذلك تكلم عن الأعراض، والأعراض: هي المادة الشهية التي ينفذ منها الشيطان لكثير من خلق اللَّه سبحانه وتعالى؛ لذا يزين عدو اللَّه الأموال للناس؛ ليجمعوها حتى ولو كان ذلك بالباطل وأعراض الناس لينهشوا فيها.

إذن.. فالمال والعرض هما موضوع الفساد في الأرض. ومن العجيب أن عقوبة الغيبة التي أراها الحق سبحانه لرسوله ﷺ، كانت في ثلاث صور:

الأولى: رأى قوماً لهم أظفار من نحاس، يمزقون بها وجوههم، فسأل عنهم، فقيل: الذين يغتابون الناس.

الثانية: رآهم يأخذون قطعا من لحومهم فيأكلونها.

الثالثة: رآهم يأخذون لحما منتناً فيأكلونه.

ثلاثة مراءٍ، هذه المرائي كانت لبيان فظاعة هذا الجرم، الذي هو أن يغتاب الإنسان أخاه الإنسان، وبعد ذلك كونه ميتة، بمعنى أنه لو كان حياً كان يمكنه أن يدافع عن نفسه، ولكن لأن الأمر غيبة، ولا يستطيع المغتاب أن يرد عن نفسه، كان كالميت الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه.

وبعد ذلك صورة أخرى، وهي: صورة الزنا. تلك الصورة البشعة، أراها اللَّه سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ في صورة قوم أمامهم لحم طيب، يتركون هذا اللحم الطيب، ويذهبون إلى لحم خبيث نتن، فسأل ﷺ عن ذلك، فقال: الرجل تكون عنده المرأة الحلال فيتركها، ويذهب إلى المرأة الحرام، أو المرأة يكون عندها الرجل الحلال، فتدعه، وتذهب إلى الرجل الحرام.

وأيضاً صورة أخرى: وهي صورة الكلمة يقولها الإنسان، ونحن نقرأ قول بعض الحكماء، أو

الأدباء: «أنا إن لم أتكلم بالكلمة ملكتها، وإن تكلمت بها ملكتني» فحين أتكلم بها لا أقدر على ردها ثانية.

كذلك كان من بين المرائي التي رآها النبي ﷺ، رأى ثوراً عظيماً قد خرج من جحر، ويريد ذلك الثور أن يدخل الجحر مرة ثانية، فلا يستطيع. فسأل رسول اللَّه ﷺ جبريل عليه السلام فقال: هذا مثل الرجل يقول الكلمة، ثم يحاول أن يرجع فيها فلا يستطيع.

وبعد ذلك رأى رسول اللَّه ﷺ رجلاً يحمل حملاً لا يقدر عليه، ومع ذلك يمد يده إلى شيء آخر ليحمله فوق حمله، فسأل عن ذلك، فقال: هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ويعجزون عن أدائها، ومع ذلك يثقلون ظهورهم بحمل جديد، وهم غير قادرين على حمل ما معهم.

إن الغاية من تلك المرائي التي رآها رسول اللَّه ﷺ أن يعلم المؤمنين، كيف يكون جزاء من يفعل

ذلك، وكيف تكون نتيجة هذه المحرمات وعاقبتها فيتخلوا عنها ولا يرتكبوها.

ومن المرائي التي رآها ﷺ: رأى قوما يرضخون رؤوسهم بالحجارة، وكلما رضخت عادت كما كانت، فقال: من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال: هؤلاء هم الذين يتكاسلون عن الصلاة، والظاهر لنا أنهم يضربون الرؤوس ؛ لأن التثاقل عن الصلاة يبدأ أول ما يبدأ من الرأس ؛فإن الإنسان إذا ركّز طاقاته وكل إمكانياته بحيث يؤديها، فإنه يؤديها مهما كانت ظروفه، ومهما كانت شواغله، ومهما كانت الموانع التي تمنعه. ولكن الإنسان يبرر لنفسه ترك الصلاة بأسلوب يختاره، مثلاً الحرص على المصلحة، ضيق الوقت، عدم القدرة وأشياء من هذا القبيل.

فكأن الفكرة التي توحي للإنسان بأن يتكاسل عن الصلاة، إنما هي فكرة تنبت في رأسه، فالرأس الذي سوّل للإنسان أن يتكاسل عن أداء الصلاة، هو الذي يستحق هذا الجزاء، ويجب أن يرضخ بالحجارة.

وليته يرضخ مرة وينتهي ويموت، ولكن لا يفتر عنه، ومعنى لا يفتر عنه: أي يعود ثانية ليضرب مرة أخرى، وهكذا، فيبقى كذلك في عذاب إلى ما شاء اللَّه.

الأنهار التي رآها النبي ﷺ

ورد ذكرها فيما أخرجه البخاري من حديث قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة، وفيه: «قال: هذه سدرة المنتهى. وإذا أربعة أنهار: نهران ظاهران ونهران باطنان.

فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات».

وفي لفظ آخر عن مالك: «في أصلها ـ يعني سدرة المنتهى ـ أربعة أنهار..» الحديث.

ووقع في رواية شريك: «فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان. فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذان النيل والفرات، عنصرهما، ثم مضى في السماء فإذا بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر. قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: الكوثر الذي خبأ لك ربك..» الحديث.

قال الحافظ رحمه اللَّه: ووقع في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة: «أربعة أنهار في الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان». فيحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في =

= الجنة، والأنهار تخرج من تحتها، فيصح أنها من الجنة.
قال ابن أبي جمرة: فيه أن الباطن أجل من الظاهر؛ لأن الباطن جعل في دار البقاء، والظاهر جعل في دار الفناء، ومن ثَمَّ كان الاعتماد على ما في الباطن كما قال ﷺ: «إن اللَّه لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(١)].
وقوله: «وأما الظاهران فالنيل والفرات»: وقع في رواية شريك: أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان، فقال له جبريل: هما النيل والفرات عنصرهما ـ والعنصر بضم العين والصاد المهملتين بينهما نون ساكنة: هو الأصل ـ والجمع بينهما، أنه رأى النهرين عند سدرة المنتهى، مع نهري الجنة، ورآهما في سماء الدنيا دون نهري الجنة، وأراد بالعنصر عنصر امتيازهما بسماء الدنيا، كذا قال ابن دحية.
ووقع في حديث شريك أيضاً: «ومضى به يرقى السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده، فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك». ووقع في رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس عند ابن أبي حاتم: أنه بعد أن رأى إبراهيم قال: «ثم =

(١) أخرجه مسلم [٢٥٦٤]. من حديث أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه.

= انطلق بي على ظهر السماء السابعة حتى انتهى إلى نهر عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعليه طير خضر، أنعم طير رأيت. قال جبريل: هذا الكوثر الذي أعطاك اللَّه، فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجري على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشد بياضاً من اللبن. قال: فأخذت من آنيته، فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك».

وفي حديث أبي سعيد: «فإذا فيها عين تجري، يقال لها السلسبيل، فينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، والآخر يقال له: نهر الرحمة». قلت: فيمكن أن يفسر بهما النهران الباطنان المذكوران في حديث الباب. وكذا روي عن مقاتل قال: الباطنان: السلسبيل والكوثر.

وأما الحديث الذي أخرجه مسلم بلفظ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة»[1]، فلا يغاير هذا؛ لأن المراد به أن في الأرض أربعة أنهار أصلها من الجنة، وحينئذ لم يثبت لسيحون وجيحون أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك. وأما الباطنان المذكوران في حديث الباب، فهما سيحون وجيحون، واللَّه أعلم. =

(١) أخرجه مسلم [٢٨٣٩] من حديث أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه.

= قال النووي: في هذا الحديث أن أصل النيل والفرات من الجنة، وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى، ثم يسيران حيث شاء اللَّه، ثم ينزلان إلى الأرض، ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها، وهذا لا يمنعه العقل، وقد شهد به ظاهر الخبر، فليعتمد، وأما قول عياض: إن الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى في الأرض، لكونه قال: إن النيل والفرات يخرجان من أصلها، وهما بالمشاهدة يخرجان من الأرض، فيلزم منه أن يكون أصل السدرة في الأرض، وهو متعقب: فإن المراد بكونهما يخرجان من أصلها غير خروجهما بالنبع من الأرض.

والحاصل أن أصلها في الجنة، وهما يخرجان أولا من أصلها، ثم يسيران إلى أن يستقرا في الأرض، ثم ينبعان، واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات؛ لكون منبعهما من الجنة، وكذا سيحان وجيحان.

قال القرطبي: لعل ترك ذكرهما في حديث الإسراء، لكونهما ليسا أصلاً برأسهما، وإنما يحتمل أن يتفرعا عن النيل والفرات، قال: وقيل: إنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيهاً لها بأنهار الجنة، لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة. والأول أولى، واللَّه أعلم.

ووقع من الزيادات في قصة المعراج عند مسلم من طريق همام عن قتادة عن أنس رفعه: «بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا =

= بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر»[(١)]. وله من طريق شيبان عن قتادة عن أنس: لما عرج بالنبي ﷺ.. فذكر نحوه[(٢)].

وعند ابن أبي حاتم وابن عائذ من طريق يزيد بن أبي مالك عن أنس: «ثم انطلق حتى انتهى بي إلى الشجرة، فغشيني من كل سحابة فيها من كل لون، فتأخر جبريل، وخررت ساجداً» وفي حديث ابن مسعود عند مسلم: «وأعطي رسول اللَّه ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك باللَّه من أمته المقحمات»[(٣)]، يعني الكبائر. وفي هذه الرواية من الزيادة: «ثم انجلت عني السحابة وأخذ بيدي جبريل، فانصرفت سريعاً، فأتيت على إبراهيم، فلم =

(١) أخرج هذه الرواية البخاري [٦٥٨١] من حديث أنس رضي اللَّه تعالى عنه.

(٢) أخرج هذه الرواية البخاري [٤٩٦٤] من حديث أنس رضي اللَّه تعالى عنه.

(٣) أخرجه مسلم [٩٧٢]، وأحمد في المسند [١/ ٣٨٧، ٤٢٢] والنسائي [١/ ٢٢٣]، كلهم من طريق مرة عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه.
«والمقحمات» جمع مؤنث سالم لاسم فاعل من أقحم، ومعناها: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار أي تلقيهم فيها. لسان العرب [١٢/ ٤٦٣].

= يقل شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت ؟..» الحديث.

وفيه أيضاً: فقال رسول اللَّه ﷺ لجبريل: «ما لي لم آت أهل سماء إلا رحَّبوا وضحكوا إليَّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فرد علي السلام، ورحب بي، ولم يضحك إلي ؟ قال: يا محمد، ذاك مالك خازن جهنم، لم يضحك منذ خلق، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك».

وفي حديث حذيفة عند أحمد والترمذي «حتى فتحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنة والنار، ووعد الآخرة أجمع»[(١)] وفي حديث أبي سعيد: أنه عرض عليه الجنة، وأن رمانها، كأنه الدِّلاء، وإذا طيرها، كأنه البخت، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها[(٢)]. =

(١) حديث حذيفة أخرجه أحمد في مسنده [٥/ ٣٨٧]. والترمذي في سننه رقم [٣١٤٧] والنسائي في الكبرى [١١٢٨٠] كلهم من طريق عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن حذيفة رضي اللَّه عنه، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي [٢٥١٥].

(٢) حديث أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه أخرجه البيهقي في دلائل النبوة [٢/ ٣٩٠] من طريق أبي محمد بن أسد الحماني عن أبي هارون العبدي - عمارة بن جوين- عن أبي سعيد =

= وفي حديث شداد بن أوس: «فإذا جهنم تكشف عن مثل الزرابي، ووجدتها مثل الحمة السخنة»(١) وزاد فيه: أنه رآها في وادي بيت المقدس، وفي رواية يزيد روى ابن أبي مالك عن أنس عن ابن أبي حاتم: «أن جبريل قال: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ قال: نعم. قال: فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن. قال: فأتيت إليهن فسلمت، فردن، فقلت: من أنتن؟ فقلن: خيرات حسان...» الحديث.

وفي رواية أبي عبيدة بن عبد اللَّه بن مسعود عن أبيه: «أن إبرهيم الخليل عليه السلام قال للنبي ﷺ: يا بنيَّ إنك لاقٍ ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها في أمتك فافعل». =

= الخدري - رضي اللَّه عنه، عن النبي ﷺ.
والحديث موضوع: آفته أبو هارون العبدي- عمارة بن جوين- قال في التقريب [٤٧٨٤] متروك، ومنهم من كذَّبه.

(١) أخرج حديث شداد الطبراني في الكبير [٧١٤٢]، والبزار في مسنده [رقم ٣٢ - مختصر]، وصححه البيهقي في الدلائل [٢/ ٣٥٥-٣٥٧]، وذكره الهيثمي في المجمع [١/ ٧٨، ٧٩] وقال: رواه البزار وأبو يعلى والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

= وفي رواية الواقدي بأسانيده في أول حديث الإسراء: «كان النبي ﷺ يسأل ربه أن يريه الجنة والنار، فلما كانت ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان ـ قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً ـ وهو نائم في بيته ظهراً، أتاه جبريل وميكائيل فقالا: انطلق إلى ما سألت. فانطلقا به إلى ما بين المقام وزمزم، فأتي بالمعراج، فإذا هو أحسن شيء منظراً، فعرجا به إلى السماوات، فلقي الأنبياء، وانتهى إلى سدرة المنتهى، ورأى الجنة والنار، وفرض عليه الخمس». فلو ثبت هذا لكان ظاهراً في أنه معراج آخر، لقوله: إنه كان ظهراً وإن المعراج كان من مكة، هو مخالف لما في الروايات الصحيحة في الأمرين معاً، ويعكر على التعدد قوله: إن الصلوات فرضت حينئذ، إلا إن حمل على أنه أعيد ذكره تأكيداً، أو فُرِّعَ على أن الأول كان مناماً، وهذا يقظة أو بالعكس، واللَّه أعلم.

فرض الصلاة

ربما يتبادر إلى أذهاننا جميعاً تساؤل وهو: إذا كانت الصلاة قد فرضت في المعراج، وهذه المرائي قد رآها رسول اللَّه ﷺ، قبل أن تفرض الصلاة على أمته. والتساؤل نفسه يمكن أن يكون مطروحا بالنسبة لآكل الربا، وآكل مال اليتامى، فلماذا لم يفرضا وقتها ؟! والصورة الأخرى التي تدل على تشريعات اجتماعية، في المجتمع الإسلامي، لم تكن قد فرضت بعد؛ لأن كل التشريعات فرضت بعد ذلك في المدينة المنورة بعد الهجرة، ولكن سنجتزئ بالمثال الخاص بالصلاة، لماذا ؟ لأن كل التكاليف والأوامر في الإسلام إنما كانت بوحي من اللَّه تبارك وتعالى إلى رسوله ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام، لكن للصلاة منزلة خاصة، فهي لم تفرض عن طريق

جبريل، وكانت هي العبادة الوحيدة التي فرضها اللَّه مباشرة على رسوله ﷺ.

وأما مسألة المرائي التي أُرِيَها رسول اللَّه ﷺ، لأمور لم تكن قد شرعت في الإسلام؛ لأن تشريعها سيتأخر، فالعلم عند اللَّه سبحانه وتعالى في المسائل ليس مترتباً، بأن يعلم شيئا يقع أولا، وبعد ذلك شيء يقع ثانياً.

وإنما كل الكون، بما كان وسيكون، معلوم للَّه سبحانه وتعالى وحدة واحدة حتى قبل أن يكون، فهو سبحانه وتعالى خالقه وموجده بما فيه ـ وكأن الحق سبحانه وتعالى أمد رسوله ﷺ بنهايات هذه الأشياء، حتى إذا ما أنزل تكليفاً، أقبل الناس عليه بجد واجتهاد مستسلمين مذعنين، لماذا ؟؛ لأنهم علموا مسبقاً، ماذا يكون جزاء من يخالف منهج اللَّه سبحانه وتعالى.

إذن.. علم اللَّه تعالى في التكليف، وعلم اللَّه تعالى في الجزاء، لا ترتيب فيه أبداً كطريقتنا، بل

كل شيء عند اللَّه هو هو. فهو سبحانه خالق التكليف، وخالق الجزاء. فإذا كان اللَّه تعالى قد عرض لنا صورة لشيء سيكلّفنا به فيما بعد؛ فلأن الواقع في الجزاء عنده، هو هذا، ولن يتغير ولن يتجدد فيه شيء آخر أبداً. ولذلك يجب أن نفطن إلى أن اللَّه سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن أمر مستقبلي، يتكلم عنه لا بصفة الاستقبالية، فصفة الاستقبالية يأخذها البشر بزمانهم فقط. أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى، فلا استقبال ولا حال ولا ماضي؛ لذلك تجد هذا واضحا، في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١] لو أن هذا الكلام من عند غير اللَّه سبحانه وتعالى، لقلنا: كيف يقول: ﴿أَتَىٰٓ﴾ وبعد ذلك يقول: ﴿تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، وهل نستعجل إلا ما لم يأتِ؟

اللّه تبارك وتعالى حين يقول: ﴿أَتَىٰٓ﴾ في أمر ما، يأتي أو سيأتي، فهو آتٍ لا محالة، فلا زمن عند اللَّه تعالى، فكذلك هذه الأشياء وإن كانت ستأتي بعد

ذلك، والمخالفون سيأتون بعد ذلك، إلا أن اللَّه أعد لهم ذلك الجزاء، وإن كان قبل أن يوجد التكليف لعلمه سبحانه بما كان وسيكون.

أما مسألة الصلاة: فهنا بحث يجب أن نبحثه، وهو أنه وردت الأحاديث الصحيحة بأن رسول اللَّه ﷺ صلّى إماماً بالأنبياء في بيت المقدس، قبل أن يُعرج به إلى السماء. والصلاة فرضت بعد العروج؟ فنقول لهم: نعم، الصلاة على هيئتها الحالية؛ فرضت في رحلة المعراج. أما الصلاة كصلاة فهي موجودة في كل رسالة، وعند أتباع كل رسول. ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وأيضاً في سورة آل عمران: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وفي آية أخرى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

إذن.. فهناك ركوع وسجود، من يوم أن خلق اللَّه

الأرض، ومن يوم أن جعل اللَّه التكليف إذا هناك صلاة ولكن لا كالصلاة الآن ؛ فالصلاة الآن جمعت ميزات كل صلوات الرسل. فصلوات الرسل كانت في بعض الأزمنة غدوة وعشية، ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخره، لها شكل خاص في القيام، وشكل خاص في الركوع، وشكل خاص في السجود.

فلما فرضت الصلاة في الإسلام الخاتم، أخذت كل ميزات الصلوات السابقة، ولم يأخذ رسول من الرسل السابقة العدد الذي فرض على أمة محمد ﷺ، بذلك التوزيع الزمني، خمسة أوقات في اليوم والليلة، ولذلك نجد أن موسى عليه السلام استكثر هذا.

إذن.. الصلاة التي فرضت، هي الصلاة الجامعة لكل مزايا الصلوات المتقدمة، عند الرسل السابقين، عليهم الصلاة والسلام.

بعد ذلك نقول: إن التكاليف التي يكلّف اللَّه بها عباده، بواسطة الرسل، هي تكاليف لتنظيم حركة

حياتهم من ناحية مجتمعهم، ومن ناحية سياستهم، واقتصادهم، وأخلاقهم. وإن الإقبال على هذا المنهج، لا بد وأن يكون بدافع أن اللَّه تعالى هو الذي أمر به.. لماذا ؟ لأن البشر لهم في مثل هذه الأمور تشريعات اجتماعية، وخلقية، فما الذي يجعلني أرغب عن تشريعات البشر، إلى تشريعات الحق سبحانه وتعالى ؟ لأنني آمنت بأن اللّه سبحانه وتعالى هو الإلٰه الحق المستحق للعبادة وحده، ولذلك وجب عليّ أن أتلقى تكاليفي منه.

إذن.. فالحق تعالى، الذي آمنت به، يطلب مني أن أقف بين يديه، كل يوم خمس مرات ؛ لأظل دائما موصولا به سبحانه، وأظل في عبودية دائمة له سبحانه.

والصلاة هي الشحنة التي تشحذ همة المؤمن ؛ ليقبل على أوامر ربه بجد واجتهاد، وأن هذه الشحنة هي الأساس، الذي سيحرك هذه « القاطرة » الإنسانية، نحو الأوامر والنواهي الإلهية.

لقد كانت الصلاة في فرضها والتكليف بها،

تختلف عن كل الأحكام، بأنها فرضت من اللَّه تعالى مباشرة.

ولنضرب مثلا ـ وللَّه تعالى المثل الأعلى ـ إن الرئيس حينما يكتب إلى مرؤوسه كتاباً، فيكون أمراً عادياً، فإذا كان الأمر أهم، استدعاه عنده، وقال له: افعل كذا وكذا. فهو لم يستدعِهِ إلا لأن هذا أمر بالغ الأهمية؛ ولأن رسول اللَّه ﷺ جُعل له المعراج تكريماً لقربه من حضرة ربه. وما دام تكريماً لقربه من حضرة ربه، ومحمد ﷺ مبعوث رحمة للعالمين جميعاً، وحرصه على أمته حرص شديد، لم يشأ اللَّه تعالى في مقام قربه منه، إلا أن يردّه إلى أمته بما يقرب المؤمنين به من اللَّه سبحانه وتعالى، فكانت الصلاة هدية القرب للقرب.

المعراج كان تكريماً لرسول اللَّه ﷺ؛ لأنه كان قرباً من اللَّه سبحانه وتعالى. لم يستأثر رسول اللَّه ﷺ وحده بالتكريم، ولكن لأنه يحب أمته، لا بد أن يرجع بهدية من اللَّه تعالى إلى من يؤمن به؛ لتكون وسيلة إلى القربى. ولذلك يقول الحق: ﴿وَٱسْجُدْ

وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩] فكأن السجود الذي هو أظهر مظاهر الخضوع في الصلاة، هو الذي يقرب الإنسان إلى اللَّه تعالى وذلك القرب الذي اقتربه رسول اللَّه من ربه، فكأن اللَّه سبحانه وتعالى حيا محمداً ﷺ، حين قرّبه منه في الملأ الأعلى، بأن حمّله هدية إلى المؤمنين برسول اللَّه ﷺ؛ لتكون لهم مدخلاً للقرب من اللَّه، كما كان لرسول اللَّه حظه في القرب منه سبحانه وتعالى.

ولتوضيح معنى أن الصلاة تقربك من الحضرة الإلهية، نقول:

إن الإنسان خلق من اللَّهِ تعالى، فاللَّه تعالى هو مُبْدِعُه، وهذا الخلق والإبداع يقف كل يوم خمس مرات، فلا بد أن يكون على أوفى شيء من الضبط. وقلنا: إن المهندس من البشر، يصلح الآلة بشيء مادي يصنعه فيها، ولكن الحق سبحانه وتعالى ـ لأنه غيب بالنسبة لنا ـ يُصْلِح عبده الذي يقف بين يديه، في لحظة القرب هذه، بأمر غيبي أيضاً، وليس بعملية مادية. فتخرج من مقامك بين يدي ربك،

وأنت منشرح الصدر، وقد انزاحت همومك من على كاهلك، وقوي إيمانك وتوثَّقت صلتك باللَّه تعالى.

إذن.. فالصلاة هي التي تعلم الإنسان، كيف يقبل على التكاليف، وإذا كان الإسلام قد بني على خمس:

١ ـ شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه.

٢ ـ وإقام الصلاة.

٣ ـ وإيتاء الزكاة.

٤ ـ وصوم رمضان.

٥ ـ وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

فلننظر إلى هذه الأركان، قد لا توجد هذه الأركان في بعض الناس، صحيح هي أركان الإسلام، ولكن ليست هي أركان المسلم. بمعنى: أن المسلم قد يكون فقيراً فلا تجب عليه الزكاة، والمسلم قد يكون مريضاً أو على سفر، فلا يصوم، ويسقط عنه فرض الصوم لأجل مسمّى، وقد لا يستطيع الحج، فيسقط عنه فرض الحج.

إذن . . هي أركان الإسلام، وليست أركان المسلم؛ لأن المسلم يعتمد أولاً على الشهادة ثم الصلاة بإقامتها . وعلى هذا فإن الركن الأساسي، الذي لا ينفك عن الإنسان المسلم أبداً، بعد الشهادة هو الصلاة .

والشهادة قد يقولها المسلم مرة عند دخوله الإسلام فهي مفتاح دخول الدين وإن كان عليه بالطبع أن يرددها باستمرار مع المؤذن، ويجدد بها إيمانه دوماً وأما الصلاة فلا تنفك عن المسلم أبداً حتى وهو في الحرب، أو وهو مريض إذ يجب عليه أن يؤدي الصلاة، حتى ولو بقلبه .

إذن . . فلا عذر لمن لا يؤديها أبداً، لا مهرب ولا مفر .

أنت مطلوب منك أن تشهد بأن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه، ولو مرةً واحدة ؛ إذ هي مفتاح دخولك الإسلام، وبعد ذلك قد تصوم أو لا تصوم، وذلك حسب الصحة والمرض والسفر،

وقد لا تحج إذا كنت غير مستطيع للحج فلا تحج، فما الذي بقي لك من أركان الإسلام، بقي لك الصلاة، وهي الركن المتكرر الدائم ؛ لذلك فالصلاة عماد الدين.

وإذا نظرت إلى الصلاة وجدت ـ مع كونها لا تسقط عن مسلم أبداً ـ فيها كل أركان الإسلام ؛ لأنك لا بد في الصلاة أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه، فالركن الأول مكرر فيها.

وأيضاً إيتاء الزكاة، ما الزكاة ؟ إن الزكاة هي شيء من مال يعطي للمحتاج؛ أي أن تضحي بشيء من مالك، والمال في عرف الإسلام فرع الوقت ؛ لأن العمل يحتاج إلى وقت، فكأنك ضحّيت ببعض مالك الناتج من عملك، الناتج من استغلال وقتك. والصلاة لا تأخذ من المال، ولكن تأخذ من الوقت الذي يُعمل فيه العمل، الذي يأتي بالمال، فكأن الزكاة أخذت شيئاً من المال الناتج عن العمل، والعمل الناتج عن الوقت. إلا أن الصلاة أخذت من الوقت نفسه، من الأساس الأصيل.

إذن . . حينما تأخذ من يومك ساعةً للصلاة، تكون قد اقتطعتَ جزءاً من الوقت، فجعلته للصلاة، كما تقتطع جزءاً من المال.

إذن . . فالزكاة اقتطاع من المال، والمال ناشئ عن العمل، والعمل يحتاج إلى وقت، فالصلاة تقتطع من الوقت الأساسي، ففيها زكاة أهم من المال. والذي يمنع الناس عن كثير من الصلاة، هو أن يقولوا: إنها تحتاج إلى وقت، وهذا يعطّلنا عن مصالحنا. فيكون ردّنا عليهم بأن نقول لهم: كما أن اللَّه سبحانه وتعالى سمى نقصان المال من الزكاة: زكاة، فهو لم يسمّهِ نقصاناً، ولكن سمّاه زكاة، ونماء، فيجب أن تستقبل أيضاً الوقت الضائع عندك في الصلاة، الذي تقول عليه: ضائعاً، استقبالك الناقص يخرج من مالك، فهو ينمّيه ويزيده ولا ينقصه. فكذلك الوقت إذا ضحّيت منه ببعضه، وجعلته للَّه سبحانه وتعالى، فإن البركة في بقية الوقت، ستعوّضك كل ما قد مضى، كما أن الزكاة نماء، والربا محق.

وأيضاً فيها صوم، وما هو الصوم ؟ الصوم هو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج، في نهار رمضان. لكن أنا في الصلاة أمسك عن شهوتي البطن والفرج، وعن الحركة والكلام، وعن كل شيء.

إذن.. فهناك لون من الصيام متعلقاته في المنع، أوسع من متعلقات الصيام.

وأيضاً فيها قصد البيت الحرام والاتجاه إليه ؛ لأنك تستحضر وأنت تصلي الكعبة، بيت اللَّه سبحانه وتعالى، فتتجه إليه، وتتحرى عن اتجاهه.

ولما كانت الصلاة هي الركن الوحيد الذي لا يسقط عن المسلم، جاءت فيها كل الأركان في شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه. ومن الزكاة بشيء أكثر فائدةً من المال، بل بالوقت الذي يأتي بالمال، ومن صوم صمته فوق ما تصوم في رمضان، واستحضار لبيت ربك في كل وقت من الأوقات، فكأنك حججت بقلبك، وإن عجزت عن الحج بجسدك.

ولكن . . ماذا عن دور موسى عليه السلام في النصح بمراجعة اللَّه سبحانه وتعالى ؛ للتخفيف عن المسلمين بإنقاص الصلاة ؟

هنا نريد أن نقول : فرضية الصلاة كانت بالمباشرة ـ كما قلنا سابقاً ـ لأهميتها ، والرواية التي قالت لنا : إن اللَّه سبحانه وتعالى قد فرض خمسين صلاة ، ولما أخبر رسول اللَّه ﷺ موسى بذلك ، فقال له : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، وتكرر ذلك حتى صارت خمساً .

في هذا المقام أحب أن أُذكر المسلمين بأن كراهيتنا لليهود ، يجب ألا تنسحب على موسى عليه السلام . يجب أن يُفهم هذا الكلام جيداً ، فلا يدخل في نفوسنا شيء على موسى عليه السلام ؛ لأن موسى عليه السلام رسول من رسل اللَّه سبحانه وتعالى ، بل هو من أولي العزم من الرسل . وكونه طلب من رسول اللَّه ﷺ أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف ، هل في ذلك وصاية ؟ وما نوع هذه الوصاية ؟ الوصاية تكون من الإنسان الذي يأتي

ليفرض عليّ أمراً أكثر، أما الوصاية التي تأتي بالتخفيف، فهل توصف بأنها وصاية ؟ إنه يريد أن يخّفف عني أموراً، يعلم هو أنني لا أطيقها.

وقد ورد في الحديث: «فإن أمتك لا تطيق ذلك»، فهل يريد أن يقلل من شأن الأمة الإسلامية واحتمالها، كما يقول بعض الموتورين ممن لا عقل لهم ؟

نقول: لا، انظر حينما يقول موسى لمحمد عليه الصلاة والسلام: « أنا جرّبتُ الأمم قبلك »، لم يكن اللَّه سبحانه وتعالى قد فرض على قوم موسى عليه السلام إلا صلاتين، صلاة بالعشي، وصلاة بالغداة، ومع ذلك ما قاموا بها. فموسى عليه السلام وهو الذي عاش مع قومه طويلاً يدعوهم إلى اللّه تعالى ويرغبهم، ومع ذلك لم يقوموا بوقتين من الأوقات، ويقول ذلك لرسول اللَّه ﷺ، فهذا دليل على أنه يحب رسول اللَّه ﷺ، ويحب أمة رسول اللَّه ﷺ ؛ ولذلك يريد ألا يعرضها لما تعرضت له أمته، من أنها لم تستطع. فهذه ليست شهادة بأننا ضعفاء،

وإنما هو يخشى أننا قد لا نقوى على هذا، لماذا ؟ لأنه جرب مع أمته فلم تقو. ومعنى جرب في قومه، فهذه شهادة ضد أمته، لأن معنى ذلك أنه عرف أن أمته لم تستطع، ولم تقدر، فخشي علينا. ما الذي جعله يخشى علينا ؟ يقينه بما فعلته أمته.

ثم نأتي إلى السؤال عن كثرة أنبياء بني إسرائيل، الذين قابلهم الرسول ﷺ نقول: إن الأنبياء ـ كما سبق أن قلنا ـ إنما جاءوا لتبليغ منهج اللَّه تعالى إلى خلق اللَّه تعالى ليعالجوا أدواء البشر. فكأنهم الأطباء الذين أرسلهم اللَّه تعالى ؛ ليعالجوا البشرية من علاتها، فإذا ما كثر على أمة أطباء، فاعلم أن أمراضها كثيرة.

وما دام أنبياء بني إسرائيل كانوا كثيرين، فمعناه أن بلاءهم كان كثيراً، وأن نبياً واحداً لم يكفهم، وهذا دليل على استفحال الأدواء فيهم، وأن نبياً واحداً لم يكن ليكفيهم ؛ ولذلك لا يؤخذ كون اليهود أكثر الأمم أنبياءً، على أنهم أحسن الأمم

وأعظمها، ونكرر قولنا لهم: إن الأنبياء كالأطباء، وكثرتهم عند اليهود تدل على أن أمراضهم أمراض كثيرة معضلة، وإن طبيباً واحداً لم يكن كافياً، فعلى الرغم من تعدد الأنبياء، كان ما كان منهم.

تخفيف عدد الصلوات

إذا كان اللّه قد جعلها خمس صلوات، فلماذا أمر في بدء الأمر بخمسين ؟

نقول: إن التكاليف من اللَّه سبحانه وتعالى، ليست لحاجة اللَّه تعالى إلى فعلنا، وإنما هي لصالحنا نحن. فالأساس الأصيل، أن التكاليف لا ينتفع اللَّه تعالى بها، وإنما هي لصالحنا نحن، فحين يكلّفنا اللَّه سبحانه وتعالى تكليفاً، فإنه يكون لصالحنا، ويعطينا على هذا التكليف أجراً إن قمنا به.

وحين فرض اللَّه سبحانه وتعالى الصلاة خمسين وصيّرها إلى خمس، هل أنقص ما يريد إعطاءه من الثواب، أم ظل الثواب خمسين ؟

نقول: لقد ظل الثواب خمسين.

إذن.. فالعطاء غير متناسب مع العمل، فتقرير العطاء من اللَّه تعالى على الخمسين، وظل العطاء هو

العطاء، وبعد ذلك خُفِّفت الوسيلة لا العطاء، فبعد أن كانت خمسين أصبحت خمساً، ولكن الثواب ظل كما هو.

وكثير من الناس يقول: كيف ينسخ اللَّه تعالى الحكم، قبل أن نمكّن من الفعل ؟ فيكون الرّد عليهم: إن الناس يفهمون أن مراد التكليف من اللَّه سبحانه وتعالى، إنما هو فعل الشيء المكلف به، بمعنى أن المراد من كل تكليف من اللَّه سبحانه وتعالى لخلقه، أمران:

الأمر الأول: الإيمان بالتكليف وعدم ردّه.

الأمر الثاني: فعله.

فإذا قبلت الأول، فقد أخذت شقاً من الأمر بالتكليف، وبعد ذلك الشق الآخر وهو الفعل، وأنا أريد أن أوضح هذه النقطة، فأقول مثلاً: إبليس عصى ربه، وآدم عصى ربه، لماذا طرد إبليس من رحمة اللَّه ؟ ولماذا تلقى آدم كلمات من ربه، فتاب اللَّه عليه ؟

هنا ننظر إلى معصية كل منهما، فإبليس عصى اللَّه تعالى في أنه رد الأمر التكليفي على اللَّه تعالى، وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] بمعنى أنه لا

يعجبني هذا التكليف، أنا خير منه.

إذن.. فقد رد التكليف على من ؟ على اللَّه تعالى.

لكن آدم عليه السلام لم يردّ التكليف على اللَّه تعالى، بل اتهم نفسه وقال كما ورد في الذكر الحكيم في سورة الأعراف آية [٢٣]: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فحين كلّف اللَّه سبحانه وتعالى رسوله أن تكون الصلاة خمسين، قبلها رسول اللَّه ﷺ، وانصاع لأمر التكليف، ولم يعارض فيه. ثم بعد ذلك طلب التخفيف.

فيكون قبوله ﷺ هو التسليم بأمر اللَّه سبحانه وقبول التكليف، ثم بعد ذلك: فعله شيء آخر.

فالذي نسخ ليس قبول التكليف، ولكن الذي نسخ هو فعل التكليف. فالخمسون صلاة، صارت خمساً، فهل يكون اللَّه سبحانه وتعالى قد كلّف بشيء، وقبل أن يمكن منه نسخه ؟ نقول: إنه مكّن في واحدة، ولم يمكّن من الثانية، مكن من ماذا ؟ من أنه قبل أمر التكليف.

وشاهد ذلك في قصة نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام:

إن الحق سبحانه وتعالى طلب من إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده، ماذا كان من إبراهيم ؟ قال: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات]، أي: تقبلتَ يا إبراهيم الأمر بإيمان ويقين، وأقبلتَ أنتَ وولدكَ لتفعله، فتكون المسألة قد انتهت، فهذا هو المراد من إبراهيم، فكأن الأمر التكليفي يطلب منه شيئان:

الأول: أن يؤمن به، وأن يتلقاه بالقبول والتسليم والرضا وعدم الرفض والرد.

والثاني: أن يفعله ؛ ولذلك إذا جاء واحد لم يُصَلِّ، ونقول له: أنت لم تُصَلِّ، فهل أنت منكر للصلاة أم كسلان ؟ فإن كان منكراً، فنقول له: كفرت. لماذا ؟ لأنه ردّ الأمر في الأول. وإن كان متكاسلاً فنقول له: يجب أن تصلي، فأنت عاصٍ للّه تعالى بترك الصلاة ويخشى عليك كذا وكذا.

والذي يتعامل بالربا، إن قال: إن الربا حرام، ولكنني مضطر إليه ويعدد أسباب اضطراره، ويطلب من

اللّه تعالى أن يعاونه على الخلاص منه فإنه قد قبل الحكم من اللَّه سبحانه وتعالى، ولكن نفسه ضعُفت فلم ينفذه. فهذا مؤمن عاصٍ، لكن الذي يحل الربا أو يحل بعض صوره، يكون قد دخل في منطقة الكفر، لماذا؟ لأنه لم يقبل الحكم من اللَّه، ورده عليه سبحانه وتعالى.

كيف رأى النبي ﷺ الأنبياء والتقى بهم ؟

هناك سؤال يمكن أن يرد إلى الذهن، وهو كيف التقى رسول اللَّه ﷺ بالأنبياء وهو في عالم المشاهدة وهم في عالم الفناء ؟

نقول: إن في القرآن الكريم آيات، لو وقف الإنسان عندها بإمعان، تعطي له الأصل الذي يعتمد عليه في إيمانه بهذا الحدث العظيم وما جرى فيه. فمثلاً: كون النبي ﷺ يلتقي بالأنبياء ويصلّي بهم، مع أنه حي بقانون الأحياء، وهم موتى بقانون الأموات! فكيف التقى الحي بقانون الأحياء، مع الموتى بقانون الأموات، ويعملون عملاً واحداً ؟!

إن الإنسان منا روحه حين تتصل به، تتصل اتصالات مختلفة، تتصل به وهو حي، على قسمين:

القسم الأول: تتصل به حالة اليقظة ولها قانون.

القسم الثاني: تتصل به حالة النوم ولها قانون.

واليقظة والنوم آيتان.. يتعرض لهما الأحياء، دعنا من الأمر الغيبي الذي في البرزخ أو ما بعد البعث، فنحن نتكلم عن المسألة الداخلة في نطاق حياتنا ولها قانونها المعروف، فإذا أتيت بقانون الروح مع الجسم في حالة المنام، فأنا لي حالتان وأنا حي: حالة اليقظة، وحالة النوم. فللروح اتصال بالجسم في حالة اليقظة ولها قانونها المعروف.

وللروح اتصال بالجسم في حالة المنام، هل هو قانون الروح مع الجسم في حالة اليقظة ؟ لا، ليس هو.. لماذا ؟ قيل: لأنني أرى في المنام، أن فلاناً يرتدي ملابس حمراء، وآخر يرتدي ملابس خضراء. فأنا أرى الألوان وعيني مغلقة، فما الذي جعلني أرى الألوان بغير آلة الإبصار لأن عيني مغمضة وأنا نائم ؟ إذن.. فهناك وسيلة من وسائل الإدراك غير التي عندي، ووسائل من وسائل الإحساس بالأشياء، غير الحواس الخاصة بي. فبمجرد خلود الجسد للنوم، تبدأ للروح إشراقاتها، وتجلياتها مع الجسم، تعطي له معاني جميلة، وبعد ذلك، الزمن ليس له سيطرة،

المَرائي ليست لها سيطرة، ولكن لها قانون خاص، ترى مثلاً أنك نائم، ومعك إخوتك تمرحون وتأكلون الطعام، ويرى واحد آخر نائم معك وقد يكون في نفس الغرفة، أنه مع قوم يضربونه وأنت لا تشعر به، وهو لا يشعر بك، فأنت في عالمك، وهو في عالمه. لو أتيت وطبقت هذا القانون في ماديات اليقظة، فلا يتحقق أبداً.

إذن.. فالحقيقة قد وضحت، وإن اليقظة لها قانون، والنوم له قانون. وقانون الروح في النوم أخف وأشف وأقوى من قانون الروح في اليقظة. فإذا كان ذلك مع بقاء الحياة، فما بالك لو أن هذه المادة كلها فنيت وانتهت، ماذا يكون القانون الذي يأتي بعد ذلك؟ أيكون أكثف من قانون النوم أم أشف من قانون النوم؟ لا بد أن يكون أشف من قانون النوم، وتكون فيه المرائي، وفيه الصور، وفيه الالتقاءات. لكن من الذي يستطيع أن يجرّد نفسه من ماديته، لتفوق فيه روحانيته حتى يلتقي بمثل هؤلاء ؟

قد يكون هذا مثلاً ما فعله اللَّه سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، بأن جرَّده من ماديته فأصبح يرى الأشياء

التي لم يكن يراها ؛ واللَّه تعالى قادر على أن يُري رسوله ﷺ بذلك أو غير ذلك، ولذلك أخذ رسول اللَّه ﷺ المرحلتين، وكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا وجاءت كفلق الصبح.

إذن.. إن مجرد خروج المادة من رسول اللَّه ﷺ أنه يرى الرؤية ناصعة، فما بالك إذا كان اللَّه سبحانه وتعالى قد أحدث في نبيه ﷺ تغييراً، فهل يرى أم لا يري ؟ وبقانون أشف من قانون النوم، وإذا كان ذلك هو القانون البرزخيّ، فما بالك بقانون اتصال الروح بالجسم في الآخرة ! سيكون لها اتصال بنظام آخر اللّه وحده يعلمه.

إذن.. يجب أن نلاحظ أن الروح لها اتصال بالجسم في حالة اليقظة، وبعد ذلك لها اتصال بالجسم في حالة النوم، وقانونها أشف وأقوى من قانون اليقظة، وللروح اتصال بالجسم في حالة البرزخ، وللروح اتصال بالجسم بعد البعث، وذلك هو الاتصال العلوي، الاتصال النهائي، ولذلك في الحياة الآخرة سنكون شيئاً آخر تماماً، نأكل ولا تخرج منا فضلات، ولا نشيب.

إذن.. يجب أن نلاحظ أن كل حالة في اتصال

الروح بالجسم لها قانونها، قانونها مع اليقظة شيء، ومع النوم شيء، وبعد البعث شيء آخر.

هذا ما أردت أن أوضحه في هذه المسألة وليعلم القاصي والداني أن اللّه تعالى على كل شيء قدير، وهو سبحانه يفعل ما يشاء، ولا يعجزه شيء إنما إذا أراد شيئاً أن يقول له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، آمنا باللّه تعالى وكتابه، وصدقنا برسوله ﷺ والحمد للّه رب العالمين.

فهرس المحتويات

الإسراء والمعراج

مقدمة الناشر ٥
الإسراء والمعراج ٩
جفاء أهل الأرض . . وبداية الرحلة المباركة ١٥
الإسراء في القرآن ١٨
وجه المعجزة في الإسراء والمعراج ٢٤
الفرق بين الرؤيا والإراءة ٥٦
المرائي والصور في الإسراء ٦٤
الأنهار التي رآها النبي ﷺ ٩٢
فرض الصلاة ١٠٠
تخفيف عدد الصلوات ١١٧
كيف رأى النبي ﷺ الأنبياء والتقى بهم ؟ ١٢٢